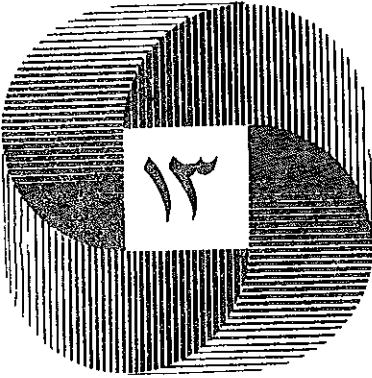


الفصل الثالث عشر

العصر العزيم الاستاذي

في

حضانة وادي السرايين



- تحول مجرى الفرات الى جهة الكوفة
- تأسيس مدينة الكوفة
- تحول مجرى دجلة الى جهة واسط
- مدينة واسط وأنهار البطائح
- مدينة البصرة وأنهارها
- الري في العصر العباسي
- انهدم الفرات في الدلتا
- انهدم الفرات الاوسط
- أرض السواد في العهد العباسي
- انهدم دجلة
- عهد الأخطاطم

« ان اعمال خلفاء في الري المراد في الأيام الماضية تشبه
اعمال الري في مصر والعراق المتحدة الأمريكية وأرستاليا
في هذا العصر . ان المراد ليس بحاجة الى تخطيط جيد
لشدة التسرع وفتح البدول فانه في الزمان الباقية من الدولة
العباسية كفاية لتنظيم الزراعة والري في العراق .
سير وليام ويلكوكس

١ - فيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ واثره في تطور الحالة الجغرافية

تتميز بداية العصر العربي الاسلامي باحداث مهمة غيرت المعالم الجغرافية والطوبوغرافية في البلاد ، فقد كان الفيضان الكبير الذي وقع سنة ٦٢٧ / ٦٢٨ م والذي عده البعض نقطة تحول مهمة في تاريخ العراق تمخضت عنها نتائج خطيرة في تطور مجرى نهر الفرات ودجلة ، فتحول كل من النهرين في منطقة الدلتا عن اتجاهه وقد رافق هذا التحول انتقال العمران من مكان الى آخر . وفي الوقت نفسه ادى هذا الطغيان الى تخریب الجداول والسدود واستولى على الاراضي المنخفضة الممتدة بين الكوفة والبصرة فجعل منها منطقة واسعة من البحيرات والمستنقعات صارت تعرف في العصر العربي الاسلامي باسم « البطائح »^(١) .

٢ - تحول مجرى نهر الفرات من جهة بابل الى جهة الكوفة

ان اهم تطور حدث في نهر الفرات انه تحول من مجراه باتجاه بابل الى جهة شط الهندية الحالي (مجرى بالاكوباس القديم) وذلك من نقطة تقع فوق بابل . هذا هو التحول الثالث في مجرى الفرات ضمن الدلتا ، اذ كان في بادىء الامر يجري شرقا نحو كوثى ثم تحول باتجاه بابل (شط الحلة الحالي) في العهد البابلي القديم (انظر الفقرة ٤ من الفصل التاسع) وقد بقي محافظا على هذا المجرى البابلي مدة تربو على النفي سنة ، وهي اطول مدة استقر فيها الفرات في مجرى واحد في منطقة الدلتا حتى تحول في طوره الثالث الى جهة شط الهندية الحالي نتيجة لفيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ م المذكور. لقد سبق ان ذكرنا ان مجرى بالاكوباس (شط الهندية الحالي) كان منذ ان تحول مجرى الفرات من جهة كوثى الى جهة بابل مصرفا لمياه الفرات الفائضة في موسم الفيضان ، وقد كان مصدر خطر بعد ان اخذ صدره يتوسع حتى اصبح سده بعد الفيضان من الامور الصعبة الشاقة حتى جاء الاسكندر فاهتم للامر وانتخب موقعا جديدا للمصدر تمكن بواسطته التحكم بالمياه وضبطها . فيتضح لنا من ذلك ان مجرى الفرات كان يميل منذ ذلك الوقت الى ان يتجه نحو الغرب ، اي نحو شط الهندية الحالي وذلك لانخفاض تلك الجهة ، الا ان الجهود التي كانت تبذل دوما للتحكم بمصدر فرع الهندية هي التي اعاقت او اخرت

(١) حول المراجع عن هذا الفيضان ، راجع الكتاب « المصادر عن ري لعراق » للدكتور احمد سوسة ، ص ١٥١ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٩ .

تحول مجرى النهر الى هذا الاتجاه. وهكذا اخذ النهر ينتظر فرصة ملائمة للتحويل الى ذلك الاتجاه حتى وجد تلك الفرصة في ظروف الانحلال التي سادت في البلاد في اواخر عهد الساسانيين ، ثم حدوث الفيضان الكبير الذي مر ذكره ففر من حوضه الذي يمر ببابل واتجه نحو الغرب محتلا مصرف بالاكوباس القديم فاصبح هذا المصرف المجرى الرئيسي لنهر الفرات ، وبقي على هذه الحال حتى جاء العرب فشيّدوا على ضفافه مدينة الكوفة احدى العواصم الكبرى ، وقد سمي الفرات في ذلك الوقت نهر الكوفة وقد سماه بعض مؤرخي العرب العلقمي ايضا .

٣ - تاسيس مدينة الكوفة

يرجع تاريخ انشاء مدينة الكوفة الى اوائل العهد العربي فشيدها سعد ابن ابي وقاص في سنة ١٧ هجرية (٦٣٨ م) في عهد خلافة عمر بن الخطاب على الضفة اليمنى لنهر الفرات (مجرى بالاكوباس) بعد فتح العراق لتكون مقرا للجيش العربي ، وقد اختير محلها في طرف البادية بالقرب من مدينة الحيرة لثلا يكون بينها وبين معسكر الخلافة ما يعيق الحركات العسكرية كما رغب في ذلك عمر . لذلك فقد كانت في بادئ الامر معسكرا للجيش العربي ومقره الدائم وبعد اقامة الجامع انشئت البيوت واصبحت مدينة عامرة .

وكانت الكوفة تحتل آنذاك مساحة واسعة ما بعد ساحل النهر ، وكان في وسط المدينة الجسر الشهير المعروف بجسر الكوفة الذي شيّد عبر الفرات والذي اصبح فيما بعد الممر الرئيسي لطريق الحج البري في عهد بني العباس . ومن قراها القادسية وهي تقع على طريق مكة غرب الكوفة بمسافة مرحلة وكان يطلق عليها اسم قادسية الكوفة لتمييزها عن قادسية دجلة في جوار سامراء وفي جوار هذه القرية اتصر سعد بن ابي وقاص على جيش الفرس ومهد لفتح العراق فيما بعد . وكان موقع النجف الحالي مقبرة الكوفة بيد انه بعد اقامة مرقد الامام علي فيه اصبح من المراكز المهمة ، حيث اقيمت فيه مدينة النجف التي هي الان من المزارات الاسلامية المقدسة . هذا ويذكر المؤرخون ان مدينة الكوفة كانت مشرفة على الخراب في القرن السادس الهجري عندما زارها ابن جبير حيث وجد سورها متهدما .

٤ - مصير فرع بابل بعد تحول مجرى الفرات عنه

اما مصير فرع بابل بعد تحول مجرى الفرات عنه فقد اصبح عبارة عن فرع ثانوي اطلق عليه اسم (نهر سورا) ويمكن مشاهدة آثار الصدر الذي كان يجري فيه نهر سورا هذا شمال مدينة المسيب الحالية بقليل ، حيث يشاهد المرء وهو يقطع الطريق التي تصل الاسكندرية بالمسيب ضفافا مرتفعة لنهر قديم واسع يمتد عدة اميال شرقا . وكان يعرف القسم الاعلى منه نهر سورا الاعلى والقسم الاسفل الذي يمتد جنوب مدينة بابل باسم « نهر سورا الاسفل » (انظر ما يلي عن نهري سورا والعلقمي - النقرة ١٢ هـ) .

٥ - تحول مجرى نهر دجلة من جهة العمارة الى جهة شط الغراف

وقد طغت مياه نهر دجلة في نفس الوقت الذي طغى فيه نهر الفرات فتحول مجرى النهر من اتجاهه نحو العمارة الى اتجاه نهر الغراف الحالي، فقد لعب نهر دجلة نفس الدور الذي لعبه نهر الفرات اذ تناوب الفرعان ، فرع العمارة وفرع الغراف ، في اختلال المجرى الرئيسي للنهر في مختلف الادوار ، فبعد ان كان المجرى الرئيسي يسير في الاصل باتجاه فرع العمارة تحول الى اتجاه فرع الغراف في العهد السومري والبابلي (حول اصل فرع الغراف ومنشئه انظر الفقرة ١٠ من الفصل السادس) ، ثم صارت كميات الغرين تتكاثر مع مرور الزمن في قسمه الاسفل الذي يلتقي بنهر الفرات في اور ، الامر الذي ادى الى انعاش فرع العمارة حتى صار هذا الفرع الاخير بعد مرور الزمن يسحب اكثر مياه نهر دجلة متوسعا على حساب فرع الغراف، وكانت النتيجة ان جف مجرى الغراف تدريجيا وانقطعت عنه المياه في موسم شح المياه (موسم الصيف) فانتقل العمران الى جهة فرع العمارة . ويعتقد ان هذا التحول من فرع الغراف الى فرع العمارة قد تم نهائيا في اوائل الالف الاولى للميلاد بحيث اضطر الزراع الى اقامة سد على فوهة فرع العمارة لتحويل بعض المياه الى فرع الغراف الذي غدا جدولا ثانويا ، لذلك صار يسمى بالدجيل (تصغير دجلة) ولما طغت مياه نهر دجلة في سنة ٦٢٧/٦٢٨ م عاد مجرى النهر وتحول الى اتجاهه القديم نحو فرع الغراف بحيث أصبح هذا المجرى الرئيسي لنهر دجلة ، وهكذا صارت مياه نهر دجلة تنساب في العهد الاسلامي بطريق مجرى الغراف الجديد الى الاهوار الواسعة (البطائح) التي تكونت في الجنوب بين الكوفة والبصرة ، فقلت المياه في مجرى فرع العمارة بعد ان كان في اوائل القرن السابع للميلاد المجرى الرئيسي لنهر دجلة (٢) .

وقد لعب مجرى الغراف الجديد دورا مهما في زمن العرب حيث استغل قسم كبير من مياهه لارواء اراضي الغراف الخصبة وفتحت عدة جداول تأخذ من ضفتيه لذلك الغرض . هذا وفي الوقت نفسه شيدت على ضفافه عدة مدن اكبرها مدينة واسط التي اصبحت من اهم مدن العصر العربي الاسلامي . اما فرع العمارة فصار يعرف باسم دجلة العورة او دجلة الاعمى وقد سمي ايضا « فيض البصرة » في قسمه الاسفل ، ويظهر ان كلمة اعور او اعمى كانت تطلق على الانهر التي تكثر فيها الراسبات الغرينية ، وان هذا الاصطلاح لا يزال يستعمل الان حيث يقال ان النهر اعمى ، اي ممتليء بالراسبات او مندرس .

والظاهر ان العوامل التي ادت الى تحول مجرى نهر دجلة من مجراه باتجاه العمارة الى جهة الغراف ترجع بوادرها الى زمن قباز فيروز (٤٨٨-٥٣١ م) ، ففي عهده حدثت بثوق في ضفاف

(٢) يلاحظ في هذا الصدد ان مجرى دجلة الجديد مع انه كان يجري في اتجاه شط الغراف الحالي، الا انه كان يسير الى الشرق منه ، وان آثاره التي يمكن مشاهدتها على مسافة قليلة من شرقي مجرى الغراف الحالي تعرف باسم اثار نهر الدجيلة القديم .

نهر دجلة اليمنى ادت الى غمر مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية في جهة الغراف ، ولما تولى ابنه كسرى انوشروان عرش المملكة الفارسية اقام سدودا في مواضع البثوق عند الموضع المعروف بالخيزرانة لصيانة مجرى النهر الذي يتجه صوب العمارة وتحويل المياه اليه * ثم عادت المياه تفتح لها ثغرات في اتجاه مجرى الغراف في عهد كسرى ابرويز (٥٩٠-٦٢٨ م) فحاول ان يسد هذه الثغرات الا ان الفيضان الكبير الذي حدث سنة ٦٢٧/٦٢٨ م سبب حدوث ثغرات واسعة في الضفاف فاتتهى الامر الى تحول مجرى نهر دجلة الى جهة شط الغراف الحالي في جوار الخيزرانة، وهو الموضع الذي كان يفترق منه المجران ، مجرى العمارة ومجرى الغراف * وهنا في نفس هذا الموضع اقام العرب سدا على صدر مجرى الغراف لكي يحولوا قسما عن مجرى النهر الى مجرى العمارة الذي اتتبه الجفاف في موسم الصيهود ، وصار هذا السد يعرف بقناطر الخيزران ، ولا يزال هذا الموضع يعرف باسمه القديم الذي كان يعرف به في العصر العباسي فهو يسمى اليوم « تللول الخيزرانة » ويقع على الضفة الشرقية من شط الدجلة القديم (شط الغراف الحالي) وتسمى اليوم المنطقة التي تقع فيها هذه التلول باسم اراضي الخيزرانة *

ولموضع قناطر الخيزرانة اهمية تاريخية ، فهو الموضع الذي انشئت فيه القناطر على صدر فرع الغراف الذي يسير نحو واسط بغية تحويل قسم من المياه الى المجرى الشرقي الذي يسير نحو العمارة (٢٢) * وكان هذا السد قد انشئ لأول مرة في عهد كسرى ابرويز وانشق عليه مالا كثيرا الا ان تيار المياه جرفه وجرت مياه المجرى كلها الى فرع واسط (الغراف الحالي) * وحاول بعد ذلك خالد بن عبدالله ان يعيد بناء السد في نفس الموضع الا انه لم يلبث ان انهار امام التيار الشديد والمجرى السريع * وقد سمي ابن رسته هذا الموضع « الخيزرانة » (وذكر ان آثار السد كانت تشاهد في زمنه اذا قل الماء في دجلة وهو من بناء الاجر والصاروج (٢٣)) ، اما الان فلم يبق من هذه الآثار اية علائم تعيننا على تعيين موقع القناطر بالضبط عدا تعيين موقع تللول الخيزرانة وقرية الخيزرانة نسبة للقناطر التي كانت في جوارها ، وذلك نظرا للتطورات التي اعتورت هذه المنطقة في خلال مدة تربو على الف وخمسائة سنة *

وقد وصف لنا قدامة بن جعفر هذا التطور بقوله : « وسبب البطائح المبطحة في ارض السواد ان ماء دجلة كان منصبا الى دجلة المعروفة بالعوراء التي هي اسفل البصرة في مسافة مستقيمة المسالك محفوظة الجوانب فلما كان ملك قباذ فيروز (قباذ الاول ٤٨٨-٥٣١ م) انشق في اسفل كسكر بثق عظيم فاغفل امره حتى غلب ماؤه واغرق كثيرا من ارضين عامرة كانت تليه وتقرّب منه فلما ولي انوشروان ابنه (كسرى الاول ٥٣١-٥٧٩ م) امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الارضين

(١٢) اطلق اليعقوبي على هذا السد اسم « قناطر الخيزران » (راجع وصف اليعقوبي لنهر دجلة بين المدائن وواسط « كتاب البلدان » طبعة النجف ص ٨٣) .
(٢٣) الصاروج هو النورة واخلطها من الرماد وغير ذلك (معرب) ويقال صرح الخوص اي بناه بالصاروج *

الى عمارة ، ثم لما كانت سنة ٦ من الهجرة (٦٢٧م) وهي السنة التي بعث فيها النبي (ص) عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ابرويز (كسرى الثاني ٥٩٠-٦٢٨م) زاد الفرات زيادة عظيمة ودجلة ايضا لم ير مثلها وانبثق بثوق كبار فجهد ابرويز ان يسكرها ٠٠٠ فلم يقدر للماء على حيلة فورد المسلمون العراق وشغلت الفرس بالحرب فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها يعجز الدهاقين على سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت « (الخراج ، ص ٢٤٠) » .

وهذا نص ما كتبه ابن رسته في وصف التحول والاجراءات المتخذة للجيلولة دون وقوعه : « وكانت البطائح الاولى التي كان يجتمع فيها ماء دجلة قبل تحولها الى ناحية واسط فيما بين المذار وعبدسي فلما تحولت دجلة انقطع الماء عنها وصارت صحارى ومغاوير يصيب المارة في الصيف سموم شديدة ثم ان دجلة هذه التي هي اليوم سكرت من عند الخيزرانة ليعود الماء الى دجلة وينفذ الى المذار فيصير الى بقية دجلة العوراء فخرقت واتفق عليها كسرى ابرويز مالا عظيما فاعياه ذلك وجرت دجلة في موضعها الذي هو اليوم بين يدي واسط فصارت البطائح هذه التي تكون اليوم فاعورت دجلة من ذلك الموضع المكسور الى مذار وبطلت تلك البطائح التي كانت بجوخي فبقي من دجلة العوراء من المذار الى بحر الهند وذلك في مقدار ثلاثين فرسخا وهي دجلة البصرة واليه ينتهي مد البحر ومنه يجزر اذا رجع الماء الى البحر . ورام بعد ذلك خالد بن عبدالله ان يسكرها واتفق الاموال فسفت دجلة ذلك البنيان واصله اليوم يرى اذا قل الماء في دجلة بناء من آجر وصاروج وربما لحفت به السفن المارة » (« الاعلاق النفسية » ، ص ٩٤-٩٦) . وقد اشار البلاذري الى محاولة خالد بن عبدالله هذه وفشلها بقوله « ان خالد بن عبدالله القسري كتب الى هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ / ٧٢٣-٧٤٢م) يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة فكتب اليه هشام، لو كان هذا ممكنا لسبق اليه الفرس، فراجع فكتب اليه : ان كنت متيقنا انها تتم فاعملها واعظم النفقة عليها فلم يلبث ان قطعها الماء فاغرمه هشام ما كان اتفق عليها » (« فتوح البلدان » في فصل « امر واسط العراق ») .

٦ - مدينة واسط

شيدت مدينة واسط على طرفي مجرى الغراف بعد تحول مجرى نهر دجلة الى هذه الناحية من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٨٢ هجرية (٧٠٢م) في عهد عبد الملك بن مروان وكان الحجاج قد شيد فيها قصره الشهير المعروف بقصر القبة الخضراء في الجانب الغربي على مسافة نحو سبعة فراسخ من المدينة وسماه بهذا الاسم كناية عن قبته الخضراء . كما اقام فيها مسجدا في الجانب الغربي وقد احاط المدينة بسور عظيم ونقل ابوابا لقصره وللمسجد الجامع من مدن قديمة كانت عامرة في ذلك الزمان ، مثل « الزندورد » و « الدوقرة » و « دير ماسر جيس » و « سراييط » فضج أهل هذه المدن وقالوا : قد غصبتنا على مدائننا، فلم يلتفت الى قولهم . واتفق الحجاج على بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة واربعين الف الف درهم . فقال له

كاتبه صالح بن عبدالرحمن : هذه بقعة كثيرة، وان احتسبها لك أمير المؤمنين وجد في نفسه قال :
فما تصنع ؟ قال : الحروب لها أجمل * فاحتسب منها في الحروب باربعة وثلاثين الف الف درهم *
واحتسب في البناء تسعة الاف الف درهم *

وقد اختار الحجاج الموضع الذي شيد فيه مدينة «واسط» لوقوعه في بقعة متوسطة بالنسبة
الى البصرة والكوفة والاهواز ويكون عسكره الاموي بمنزل عن أهل الكوفة * وكانت هذه
البقعة في السابق محوطة بالاهوار والمستنقعات تنمو فيها الاعشاب والاقصاب ، حتى كان يطلق
عليها قبل بنائها « واسط القصب » ، وكانت على كرش من الارض ، أي ترتفع قليلا *

وتبلغ مساحة أطلال مدينة « واسط » الممتدة على ضفتي المجرى القديم الذي كانت دجلة
تسير فيه في طورها الثالث ، وهو المجرى المعروف اليوم بشط الدجيلة القديم ، أكثر من ثلاثة
كيلومترات مربعة (١٢٠٠ مشاركة) ، ، وتمتاز هذه الاطلال في انها تمثل عدة ادوار من ادوار العهد
العربي لمدة حوالي الف عام ، كما انها تمتاز في كونها آثار عربية اسلامية بحتة *

وقد عنيت مديرية الآثار القديمة العامة بالتنقيب في أطلال « واسط » فحضرت فيها ستة
مواسم ، امتدت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٢ * وقد نشرت تقريرا قيما بالانكليزية عن اعمال الموسم
السادس ، كتبه الاستاذ السيد فؤاد سفر وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٥ ، * ودلت هذه التنقيبات
على الكشف عن اربعة جوامع في نفس المنطقة التي انشئت فيها جامع الحجاج ، اي على الضفة
الغربية من شط الدجيلة ، يرجع كل منها الى دور خاص من الادوار العربية ، وقد كشفت دائرة
الآثار من بين الجوامع الاربعة هذه عن جامع الحجاج وازاحت عنه الاتربة وبقايا اطلال
الجوامع الاخرى التي انشئت في الادوار التي تلي دوره * وجامع الحجاج كما يتضح من
المخطط الذي رسمته دائرة الآثار (انظر مخطط جامع الحجاج) مربع الشكل كل جانب منه
٢٠٠ ذراع في داخله اساطين من الحجر الرملي (Sand Stone) جميلة الصنع والنقوش ، وهو
يتألف من خمس بلاطات في مصلاه وبلاطة في كل من جانبيه وفي مؤخره ، وفي وسطه صحن واسع
مبسط بالآجر المنتظم فيه ميساة واسعة يأتيها الماء في انابيب الفخار ويصرف عنها بأنابيب اخرى *

وقد انشئت الاعمدة الحجرية من قطع مستديرة ركبت الواحدة فوق الاخرى وفي كل
من هذه القطع ثقب من وسطها وضع من الحديد ليربط القطع بعضها ببعض ، وقد ثبت القضيبي
بالرصاص ونقشت الالوجه الخارجية للدعامات بنقوش جميلة مختلفة * وقد اثير البحث عن
الاحجار الرملية وعن الموضع الذي جلبت منه ، فبين الاستاذ فؤاد سفر في بحثه عن « واسط »
(الطبعة الانكليزية ص ٢٤) ان اقرب موضع توجد فيه هذه الاحجار هو « جبال پشتكو »
الواقعة على ثمانين ميلا من شرق « واسط » ، الا اننا نرى ان الاحجار الرملية هذه موجودة بوفرة
في جبل حميرين على نهر ديبالى، والارجح انها نقلت الى « واسط » بالسفن بطريق ديبالى والنهروان
(نهر تامراء) ودجلة ، وهو طريق الملاحة الذي كان يستعمل في ذلك الزمن ، اذ لا يمكن ان

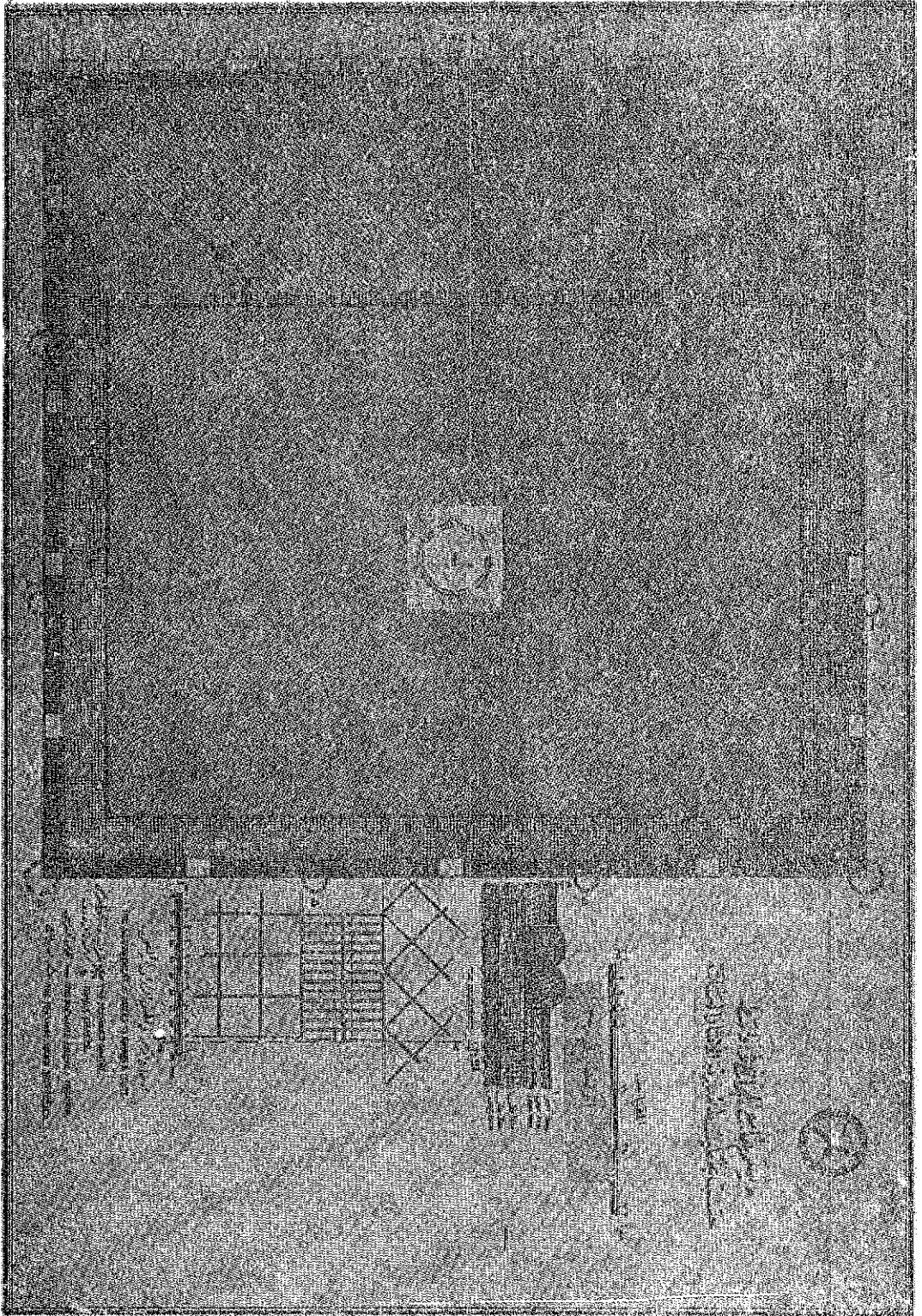
تكون هذه الاحجار الثقيلة قد ثقلت بغير الواسطة النهرية * ولما كان نهر دجلة يجري في جهة واسط في عهد الحجاج وان مجرى العمارة كان قد جف في ذلك الوقت فالطريق الملاحي الوحيد الذي كان يمكن ان يسلك في مثل هذه الظروف هو طريق ديالى والنهروان ودجلة كما تقدم * ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الحكومة العراقية تنقل الان كميات كبيرة من هذه الاحجار الرملية من جبل حميرين قرب ديالى لاستعماله في انشاء المسنيات على ساحل دجلة في مدينة بغداد (انظر المرسمين المرقمين ٣٦ و ٣٧) *

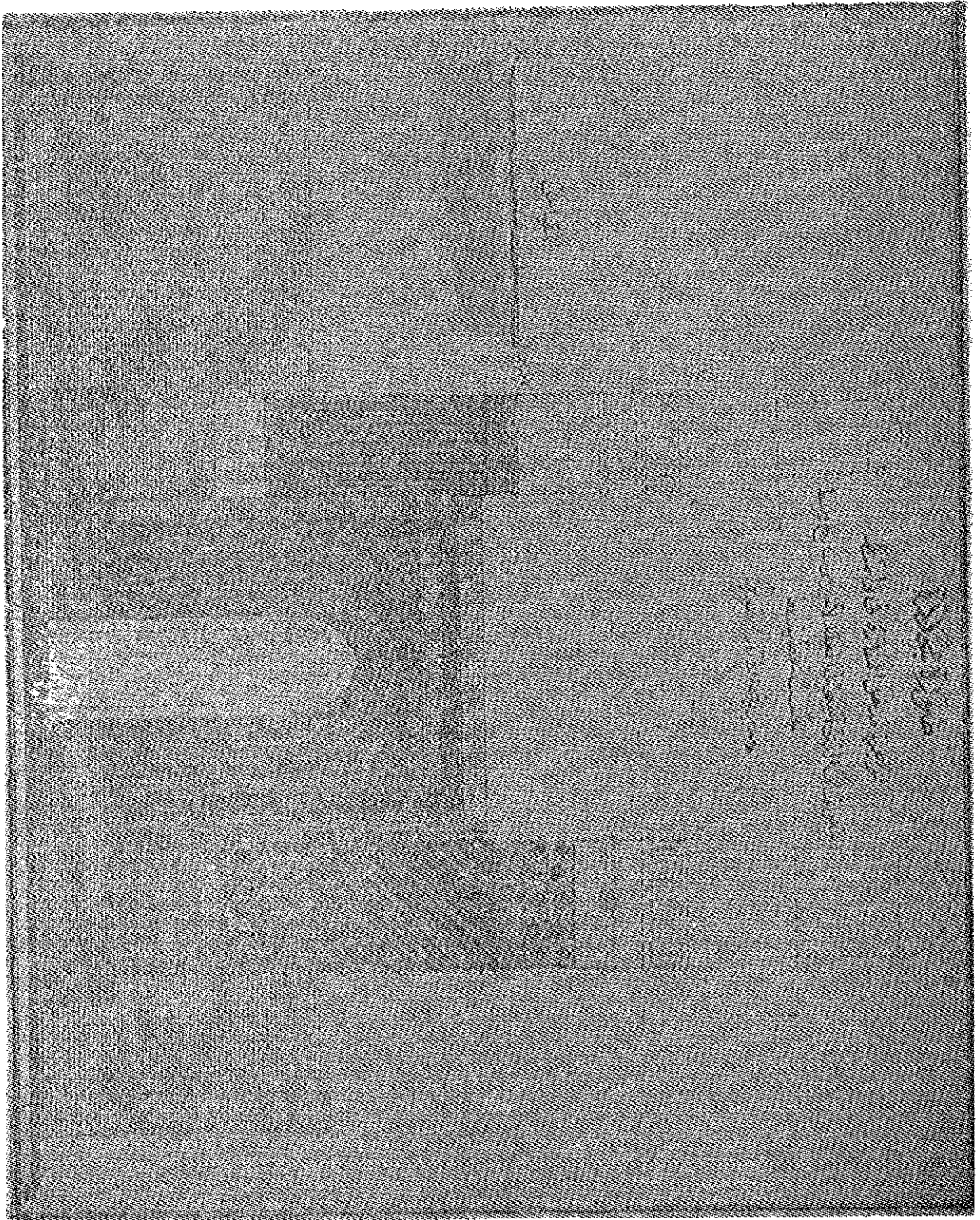
ومن اهم ما يشاهده الزائر اليوم بين اطلال « واسط » بقايا الباب الاثرية الواقعة على الطرف الشمالي الشرقي من تلك الاطلال على نحو ١٥٠ مترا من الضفة الشرقية لشط الدجيلة (مجرى دجلة القديم) ، وكان على جانبي هذا الباب منارتان (راجع صورة الباب والمنارتين) ، ويشاهد الثمن في تجميل ذلك الباب والمنارتين باستخدام الآجر المحفور المنقوش بشتى النقوش الهندسية * وكان قد اطلق الاهلون على خرائب « واسط » اسم « قبة المنارة » او « المنارة » لبروز هاتين المنارتين بين الاطلال ، ولا تزال تعرف اطلال « واسط » بالمنارة حتى يومنا هذا * وقد كشفت مديرية الآثار العامة داخل بناية هذا الباب عن مرقد واسع مثن الشكل لا زالت اركانه شاخصة ، في داخله ضريح غفل من الكتابة كانت فوقه قبة من بناء الآجر ، الا انه يظن بناء على ما جاء ذكره في معجم البلدان بانه ضريح محمد بن ابراهيم بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام * فقد ذكر ياقوت قبة هذا الضريح في مادة الحزامين بقوله : « الحزامون محلة في شرقي واسط واسعة كبيرة لها ذكر في التواريخ كثير كأنها منسوبة الى الذين يحزمون الامتعة اي يشدونها والله اعلم * * * وبالجزامين مشهد عليه قبة عالية يزعمون ان بها قبر محمد ابن ابراهيم بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وهناك قبر عزرا بن هارون بن عمران يزوره المسلمون واليهود » * وجاء ذكر قرية باسم « الحوز » متصلة بالجزامين في كتاب المراصد لابن عبدالحق فوصفها بقوله انها « قرية من شرقي مدينة واسط قبالتها متصلة بالجزامين فهي كالمحلة منها ويقال لها حوز برقة » *

وقد دلت نتائج التنقيبات ان بناية الباب تعود الى الادوار الاولى من تاريخ « واسط » ، ثم اعيد بناؤها ثلاث مرات ، وعلى هذا فان بناء الباب الشاخص يعود الى الدور الاخير ، ويعتقد انه انشيء في حوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد عثر على عدة قبور ملحقة بهذه البناية فيها الاحجار المنحوتة الدالة على تواريخها وهي تمتد بين سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) و ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) *

وجاء في « مختصر مناقب بغداد » لابن الجوزي ان المنصور لما انشأ مدينته المدورة في بغداد نقل اليها من واسط ابوابا حديدية ركبها في المنافذ الاربعة التي انشأها الحجاج في سور تلك المدينة وهذه هي ابواب الحجاج التي يقال ان الحجاج كان قد نقلها الى واسط من مدينة بناها سليمان بن داود *

الترسيم رقم (٣١) - ترسيم جامع العجاج في واسط حسب تخطيط مديرية الآثار العراقية





المرتسم رقم (٣٧) - صورة مجددة لواجهة مدخل المنارة في واسط وهو الباب الذي انشئ في العهد الأخير من تاريخ واسط حسب تخطيط مديرية الآثار القديمة .

وقد بقيت مدينة « واسط » في زمن خلفاء بني العباس من المدن الشهيرة ، وفي القرن السابع الهجري اهل شأن الجانب الشرقي من المدينة فانتقل الناس الى الجانب الغربي ، وبقيت المدينة محافظة على مقامها حتى القرن الثامن الهجري وبعد هذا التاريخ قل شأنها وخفت ذكرها بسبب قلة المياه في المجرى الذي تقع عليه حيث اخذ مجرى نهر دجلة بعد ذلك يتها للرجوع الى عتيقه القديم في الجهة الشرقية اي الى جهة فرع العمارة * وقد وصف المؤرخون مدينة « واسط » في بداية القرن السابع عشر الميلادي فذكروا انها تقع في وسط الصحراء ، ذلك مما يدل على ان المياه انقطعت عن المجرى الذي يسير في اتجاه واسط في ذلك الوقت واتجهت نحو الفرع الشرقي من دجلة في جهة « دجلة العوراء » وقد بقيت على هذه الحال حتى يومنا هذا * (٢ ج) .

لقد حصلت مساجلة في تحقيق موضع « واسط » بين المحقق الدكتور مصطفى جواد من جهة وبين دائرة الآثار العراقية من جهة اخرى ، فكانت مطالعة الدكتور مصطفى جواد انه ليس هناك ما يثبت ان موضع « خرائب المنارة » او « قبة المنارة » هو واسط الحقيقية ، ويروى انه من المحتمل ان يكون موضع « خرائب المنارة » من بقايا « قرية عبدالله » التي ذكرها ابن عبدالحق في المرصد بقوله انها « مدينة ذات اسواق وجامع كبير وعمارة ، تحت واسط ، بينها نحو خمسة فراسخ *** » * او من بقايا « بلدة المأمّن » التي اشار اليها ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٨٠ هـ بقوله ان موضعها في « نهر جعفر » وهي من اعمال « واسط » بنيت في زمن هولاءكو وفيها ديوان وجامع وخان وحمام وسوق * وعلى هذا يرى احتمال كون الباب الاثري الذي تقدم ذكره من بقايا « مدرسة قتلغ شاه التي اُنشئت في بلدة « المأمّن » وهي المدرسة التي ذكرها ابن الفوطي ايضا * وقد اجاب الاستاذ فؤاد سفر الذي شب في اطلال واسط خلال الموسم السادس (سنة ١٩٤٢) على هذه المطالعات ، ومن جملة ادلته على عدم امكان الاخذ برأي الدكتور مصطفى جواد : ١ - ان « خرائب المنارة » تشتمل على آثار ومبان تعود الى القرون الستة التي سبقت هولاءكو ؛ ٢ - ان هذه الخرائب تنتشر لمسافة ثلاثة كيلومترات على طرفي « الدجيلية » (مجرى دجلة القديم) وليس في تلك البقاع خرائب من العصور الاسلامية تبلغ مساحتها وعلو اتقاضها حتى نصف مساحة او علو « خرائب المنارة » ؛ ٣ - اتفقت المراجع على ان واسط ذات شطرين يفصل بينهما نهر دجلة ، وهذا يتفق وخرائب « المنارة » التي على شاطئ الدجيلية * وجاء في المراجع القديمة ان المسجد الجامع في واسط كان في الشطر الغربي منها بعيدا عن الشط وقد تحقق هذا من كون ان في الشطر الغربي لخرائب المنارة بعيدا عن عتيق الدجيلية خرائب مسجد جامع بعض اساطينه من الحجر ؛ ٤ - تقع على الدجيلية اطلال « سابس » المدينة التي اجمع جغرافيو العرب على انها كانت على نهر دجلة ؛ ٥ - على امتداد الدجيلية اطلال الرصافة ، المدينة التي اشقت المراجع العربية على وقوعها على نهر دجلة ؛ ٦ -

(٢ج) انظر : الدكتور احمد سوسة «ري سامراء» ج٢ ، ص ٤٣١ - ٤٤٤ .

وجدت آثار مكتوبة تدل على ان «خرائب المنارة» هي موضع « واسط » ، ولم توجد آثار مكتوبة تدل على انها غير « واسط » . اما نحن فنرى ان الدكتور مصطفى جواد لم يكن موقفا فيما ذهب اليه وان الرأي القائل بان خرائب المنارة هي « واسط » الحقيقية امر لا يقبل الشك ، وقد اهتدينا الى هذا الرأي بعد دراسة دقيقة لجغرافية انهر « واسط » وتتبع آثار الانهر القديمة في تلك المنطقة وتعيين مواضع المدن والقرى التي لا تزال تحتفظ باسمائها الاصلية . ويكفي المرء ان ينتقد القطع الحجرية المنتزعة من اساطين الجامع التي اكتشفتها دائرة الآثار في موضع « خرائب المنارة » الواقعة على الضفة الغربية من الدجيلية لحصول القناعة التامة من ان تلك الخرائب هي من بقايا واسط ، لان وزن كل قطعة من هذه القطع الحجرية تبلغ حوالي الطن الواحد ولا يمكن ان تكون قد نقلت هذه الاحجار من محاجرها في المناطق الجبلية الى موضع « المنارة » لانشاء قرية اعتيادية كقرية « عبدالله » او قرية « المأمون » . فضلا عن ذلك ان الرأي القائل باحتمال كون « خرائب المنارة » من بقايا قرية « المأمون » او قرية « عبدالله » كما ذكر الدكتور مصطفى جواد لا يمكن الاخذ به ، لان المؤرخين ثبتوا موضع قرية « المأمون » على نهر جعفر في اسفل « واسط » في الطريق الذي بين البصرة وواسط ، وقد وصف نهر جعفر انه احد ذنائب دجلة ، وكل هذا لا ينطبق على ما نعلمه عن موضع واسط ، واذا فرضنا ان «خرائب المنارة» هي «قرية عبدالله» التي ثبت موضعها في جنوب واسط على خمسة فراسخ منها ، فذلك يحتم علينا ان نتحرى عن موضع واسط في شمال « المنارة » ، في حين انه لم يكن لها اي اثر هناك . هذا واننا نعتقد ان بحثنا عن جغرافية انهر واسط وقرى منطقة واسط فيه من الادلة الكافية على ان « خرائب المنارة » هي مدينة واسط الحقيقية ، وان الموضوع لا يدع للشك او التردد في هذا السبيل .

وكان على الضفة اليسرى للمجرى الجديد في اطراف واسط قرى عديدة كقرية فم الصلح الواقعة شمال مدينة واسط والرصافة وقرية نهر بين والفاروث ودير العمال والحوائت والقطر الواقعة جنوبها ، وكذلك كان على الضفة اليمنى عدة قرى اهمها قرينا قریش والجوامد تقعان جنوب واسط . ولم يبق من آثار هذه القرى شيء على طرف شط العراف الحالي .

٧ - منطقة البطائح وجداولها

ويعلق المؤرخون أهمية عظمى على فيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ المار الذكر، ذلك انه خرب معظم مشاريع الري القائمة في آخر عهد الساسانيين وأدى الى تحول الأنهر من مجاريها وهدم السدود وسبب تكوين الاهوار والبطائح .

ولقد كتب أكثر المؤرخين العرب عن البطائح فاطنبوا في وصفها وبيان أسباب تكونها وكيفية استصلاح بعض أراضيها للاستفادة منها في الاغراض الزراعية . فمن جملة ما ذكره البلاذري في وصف البطائح قال : «لما كانت السنة التي بعث فيها رسول الله (صلعم) عبدالله بن جذافة السهمي الى كسرى ابرويز وهي سنة سبع من الهجرة ، ويقال سنة ست ، زاد القرات ودجلة

زيادة عظيمة لم ير مثلاً قبلها ولا بعدها ، واثبتت بثوق عظام فجهد ابرويز ان يسكرها فغلبه الماء ومال الى موضع البطائح قطعاً على العمارات والزروع فغرق عدة طساسيج كانت هناك * ثم دخلت العرب أرض العراق وشغلت الاعاجم بالحروب فكانت البثوق تنفجر فلا يلتفت اليها ويمجز الدهاقين عن سد معظمها فاتسعت البطيحة وعرضت ، فلما ولي معاوية بن ابي سفيان ولي عبدالله ابن مولاة دراج مولاة خراج العراق واستخرج له من الارضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف وذلك انه قطع القصب وغلب الماء « بالمسنيات » ثم استطرد قائلاً « وحدثني أبو مسعود الكوفي عن اشياخه ، قالوا حدثت البطائح بعد مهاجرة النبي (صلعم) وملك الفرس ابرويز ، وذلك انه اثبتت بثوق عظام عجز كسرى عن سدها وفاضت الانهار حتى حدثت البطائح ، ثم كان مد في ايام محاربة المسلمين الاعاجم بثوق لم يعن احد بسدها فاتسعت البطيحة لذلك وعظمت ، وقد كان بنو امية استخرجوا بعض أرضها فلما كان زمن الحجاج غرق ذلك لان بثوقاً انفجرت فلم يمان الحجاج سدها مضارة للدهاقين لانه كان اتهمهم بمالأة ابن الاشعث حين خرج عليه واستخرج حسان النبطي لهشام ارضين من اراضي البطيحة ايضاً * »

وقد ايد المسعودي حدوث هذا الفيضان العظيم ، فقال ان زيادة عظيمة حدثت في السنة السابعة للهجرة في نهري القرات ودجلة تكسرت من جرائها السدود والمسنيات والسكرور والشاذورانات وتسربت المياه الى المنخفضات ، وقد حاول كسرى ابرويز ان يعيد منشآت الري والسدود الا أنه لم يستطع تحقيق ذلك ، وقد عقب ذلك اهمال بسبب انشغال الفرس بمحاربة العرب ، الامر الذي أدى الى اتساع البطائح اتساعاً عظيماً بحيث ان خراج العراق بلغ في زمن معاوية خمسة عشر مليون درهم من القصب النبات في هذه البطائح * وما ذكره المسعودي ايضاً ان اكثر ماء القرات « كان ينتهي الى بلاد الحيرة ثم يجتازها ويصب في الخليج العربي وكان البحر يومذاك في الموضع المعروف في النجف في هذا الوقت وكانت مواكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه * » وصف ابن رسته منطقة البطائح كما شاهدها في زمنه فقال انها منطقة واسعة تؤلف سلسلة بحيرات ومستنقعات يبلغ عرضها ما يساوي المائة ميل بقدر ما تمتد طولاً وكانت تكتنف هذه الاهوار القرى والقصبات فيكثر فيها البردي والقصب ، وكانت الاهوار متصلة بعضها ببعض بترع صالحة للملاحة فكانت السفن تأتي بحمولتها فتفرغها في سفن أصغر منها لقطع الاهوار والترع المؤدية الى شط العرب (٣) * »

وقد افاد ابن رسته ايضاً بأن نهر دجلة تحول في نفس الوقت من مجراه الشرقي في اتجاه العمارة الى جهة شط الغراف وذلك أدى الى اضحلال الاراضي الواقعة على حدود المجرى الشرقي * اما مساحة البطائح فقد اختلف المؤرخون في تحديدها ، فالمسعودي مثلاً يقدر أبعادها بخمسين فرسخاً في الطول ومثلها في العرض (حوالي ١٥ ميلاً انكليزيا) في حين ان ابن رسته يقدرها بثلاثين

(٣) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٤ - ٩٦ ،

فرسخا في الطول وعرضها مثل ذلك (٩٠ ميلا) • وعلى كل فأن مساحة البطيحة كانت تتغير من سنة الى أخرى لانها كانت تتوقف على مقادير الفيضانات وعلى مساحة الاراضي المستصلحة من الاهوار • ومع ان منطقة البطائح كانت موبوءة بالمalaria فأن القسم الجاف منها كان يستغل في الزراعة وكان أهل الاهوار يصطادون السمك بكثرة وهو يؤلف مادة معيشتهم الرئيسة فكانوا يملحونه ويحفظونه ويصدرونه الى خارج منطقتهم •

يتضح مما تقدم ان البلاد فقدت الكثير من الاراضي الجنوبية الزراعية الخصبة نتيجة انتشار الاهوار (البطائح) في تلك المناطق الا ان الزراع قد مارسوا زراعة الرز في منطقة الاهوار حيث وجدوا في منطقة البطائح بقعة ملائمة لزراعته • وقد ذكر ابن سراييون اربعة من اهوار البطائح أهمها هور المحمدية الواقع في الحد الجنوبي الشرقي من منطقة البطائح، وعلى هذا الهور كانت تقع منارة حسان النبطي صاحب حوض حسان في البصرة، وقد ذكر البلاذري ان الحجاج استخدم حسان المذكور لبزل المياه من بعض الاهوار واعمار القسم من أراضيها •

ويؤخذ من الروايات التاريخية أنه كان نهر يتكون من منتهى منطقة البطائح في الجنوب ويسمى نهر ابي الاسد ، فيسير هذا النهر في اتجاه مجرى الفرات الذي يتصل بدجلة في جوار القرنة ، وكان قد سمي بأسم ابي الاسد كناية عن احد قواد المنصور المسمى ابو الاسد والذي يقال انه قام بحفر النهر ووسعه لتسهيل سير السفن فيه • ويلاحظ ان هذا النهر هو نفس المجرى الذي يصل سوق الشيوخ بالقرنة والذي قام البريطانيون في توسيعه في الحرب العالمية الاولى لتأمين سير البواخر فيه فسموه نهر الحفار • وكان يسمى هذا النهر في قسمه الاخير في زمن العرب بـ « نهر المذار » •

وكان هناك جدولان رئيسيان يتفرعان من الضفة اليمنى لنهر دجلة العورة (شط العرب) هما نهر معقل الواقع في الشمال ونهر الابله في الجنوب فيجريان بصورة موازية في اتجاه الغرب الى مسافة اثني عشر ميلا تقريبا ثم يجتمعان عند مدينة البصرة ، وبذلك فقد احاط هذان الجدولان بقطعة من الارض يحدها نهر معقل من الشمال ونهر الابله من الجنوب ودجلة العورة من الشرق ، وكان على الحد الجنوبي الشرقي من هذه الجزيرة ميناء الابله الذي اشتهر في زمن العرب لأهمية موقعه حيث كان يقع على دجلة العورة في جوار صدر نهر الابله ومن ذلك المكان يتم الاتصال النهري بمدينة البصرة الواقعة في طرف الصحراء •

٨ - مدينة البصرة وانهارها

مدينة البصرة كمدينة الكوفة شيدت في عهد عمر بن الخطاب في نفس السنة التي شيدت فيها مدينة الكوفة ، فبناها العرب بعيدة عن شط العرب وعلى طرف البادية لكيلا يكون ماء بينها وبين عاصمة الدولة العربية ، وقد جعلت معسكرا للجيش ، ونظرا لمركزها التجاري المهم امتد اليها

العمران وتوسعت مبانيها * وقد عمرت مدينة البصرة في أيام بني امية الذين اتخذوها مقرا لامارتهم في عهد حكمهم واتسعت مساحتها حتى بلغت في اماره خالد بن عبدالله (القسري) فرسخين في فرسخين ، اي حوالي ٣٦ ميلا مربعا في أرض منبسطة ، ثم زادت ثروتها في زمن العباسيين حيث أصبحت في عهدهم محورا لتجارة العراق مع بلاد الشرق كالهند والصين والحشة وغيرها من البلاد المجاورة * وقد اعتبر المؤرخون مدينة البصرة جزءا من المنطقة التي تضم المغارس التي تمتد الى عبادان * وما ذكره في هذا الصدد ابن حوقل والاصطخري قالا : « ولها نخيل متصلة من عديسي الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لا يكون الانسان منها بمكان الا وهو في نهر ونخيل او يكون بحيث يراها » * ولا زالت اطلال المدينة يمكن مشاهدتها بالقرب من قرية الزبير الحالية ، وكان للبلدة سور يحيط بها له باب من جهة البادية يسمى باب البادية * اما مدينة البصرة الحالية فلعلها انشئت في نفس الموقع الذي كان فيه ميناء الابله *

وقد وصف ابن حوقل نهر الابله فقال « انه من مشاهير انهار البصرة وطوله اربعة فراسخ ما بين البصرة والابله وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدت على خيط ورصفت بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والابنية الفاخرة والعروش العجيبة والاشجار المثمرة والفواكه اللذيذة والرياحين والفضة *** ويتشعب فوق البصرة ومن تحتها أنهار كثيرة فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر ولا يدانيه في الجمال وحسن المنظر الا نيق وكان نخيلها غرست ليوم واحد » *

وكان هناك عدا نهري الابله والمعتل عدة أنهر اخرى مهمة تنفرع من الضفة الغربية لنهر دجلة العورة (شط العرب) كانت ثلاثة منها فوق نهر معتل وهي نهر المرأة ونهر الدير ونهر شيرين واربعة تحت نهر الابله وهي نهر اليهود ونهر أبي الخصيب ونهر الامير ونهر قندل، وأشهر هذه الانهر نهر أبي الخصيب وقد سمي بأبي الخصيب لان المنصور كان قد منح الاراضي الواقعة على هذا النهر الى احد رجاله المدعو أبو الخصيب مرزوك، وعلى هذا النهر شيدت قلعة المختارة الحصينة التي تحصن فيها عصاة الزنج * وقد بالغ بعض المؤرخين في احصائهم لعدد أنهر البصرة في ذلك العهد فكتب ابن حوقل في وصفها قال : « وذكر بعض المؤرخين من أصحاب الاخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال ابن ابي بردة فزادت على مائة الف وعشرين الف نهر تجري في اكثرها الزواريق وكنت انكر ما ذكره من هذا العدد في أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع * فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها ولم استكثره » *

٩ - الري في العصر العباسي

استولى العرب على العراق فوجدوا تنظيمات الري التي كان قد أسسها الساسانيون فيه من قبلهم قد أصابها الشلل والانحطاط ، وذلك لحدوث الفيضان الكبير سنة ٦٢٧/٦٢٨ م من جهة وظروف الحرب بين العرب والفرس قبيل الفتح الاسلامي من الجهة الثانية ، تلك الظروف التي

عرقلت استمرار الجهود الزراعي في البلاد بنتيجة اهمال صيانة منشآت الري وتطهير الأنهر والجداول ، ولكن ما كاد يستتب الأمن ويستقر الحكم للعرب حتى أخذوا يبذلون كل الجهود الممكنة للحفاظ على مشاريع الري التي عمرها الساسانيون من قبلهم وصيانتها ، ثم زادوا عليها تحسينات وتوسيعات كما شقوا جداول جديدة وأقاموا على ضفافها المدن والقرى علاوة على اقامة السدود لدرء غوائل الفيضان . وقد بلغ ري العراق في زمن العباسيين وبخاصة في زمن الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون ذروة تقدمه وازدهاره فكان مصدر رخاء ورفاه شمالا المملكة بأسرها ، اذ وسعت الزراعة باستصلاح قسم كبير من الاراضي المغمورة وشقت ترع كبيرة بحيث استغل اكثر ما في نهري دجلة والفرات من المياه ، واسس نظام ري واسع يستند على اساليب علمية كما يتضح من تاريخ بني العباس الحافل بجسام الاعمال التي تمت على يدهم، وما تنسيق مدينة بغداد في العهد العباسي وتنظيم شبكة الجداول التي كانت تخرقها الا مظهر من مظاهر تقدم العرب في فن الري . وكانت مشاريع الري في ارض السواد تؤلف شبكة من الجداول والقنوات على طول نهري الفرات ودجلة .

ومما يلفت النظر ان الفتح الاسلامي لم يتعرض للانظمة المعمول بها في البلاد فيما يتعلق بالحياة الزراعية بل حافظ الفاتحون العرب على ما كان عليه الحال في زمن الفرس ، وهناك ما يشير الى انهم منعوا تملك الاراضي من قبل رجال الجيش ، ولعل الدافع الذي حملهم على ذلك هو الرغبة في استمرار الحياة الزراعية على حالتها الطبيعية ، ثم ابعاد افراد الجيش الفاتحين عن ارتباطهم بالاراضي الزراعية فيهملون واجباتهم .

وقد اعترف الخبراء والمؤرخون بعظمة اعمال بني العباس ومشاريعهم الجبارة فصرح سير ويليام ويلكوكس في كتاباته عن ري العراق القديم قائلاً : « ان اعمال الخلفاء في ري العراق في الايام الماضية تشبه اعمال الري في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا العصر » ، ومضى يقول : « ان العراق ليس بحاجة الى تخطيط جديد لشق الترع وفتح الجداول فان في الاثار الباقية من الدور العباسي كفاية لتنظيم الزراعة والري في العراق ومما هو جدير بالملاحظة ان مشروع الاعمار الذي قام به العرب في الدلتا كان نسخة طبق الاصل لما قام به مردوخ . فحينما كانت الكوفة وواسط والبصرة عواصم العالم قبل ظهور بغداد قام الحجاج امير البصرة الحازم باعمار نحو خمسين الف ايكر من الاهوار بين القرنة والبصرة وحولها الى احدى جنات العرب الارضية الاربع فكانت الاراضي عبارة عن بساط اخضر من البرسيم الحجازي تبرز منها اشجار النخيل الباسقة فتظل الحدائق وتقيها من حرارة الصيف اللافح وبرد الشتاء القارس ، بينما كانت نفائس الكروم تصل نخلة باخرى وتندلى منها عناقيد العنب الارجواني » (٤) .

(٤) تقريره عن ري العراق ، ص ١١ - ١٢ .

وقد تطرق الاستاذ محمد كرد علي الى هذا الموضوع ذاته في كتابه « تاريخ الحضارة الاسلامية » فقال « انه مضى دهر طويل كانت فيه شعوب المملكة اول العارفين بالزراعة ، واحسن العمال وأجرأ التجار في العالم القديم ، واصبحت الزراعة التي اتخذوها عن اساليب بابل والشام ومصر علما حقيقيا للعرب ، اخذوا نظرياتها من الكتب ، ثم وسعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ليس بعدها مهارة ، وكان رجال الطبقة الاولى منهم لا يتنكرون عن العمل بايديهم في زراعة الارض ، بينما كان غيرهم يحترقها ويعدها عملا مهينا » *

ومما قاله المؤرخ الفرنسي شارل سنيوبوس في كتابه « تاريخ الحضارة » في هذا الصدد « ان امراء العرب جروا على قاعدة اسقاء الاراضي بفتح الترغ فحفروا الابار وجازوا بالمال الكثير من عثر على ينابيع جديدة ، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ونقلوا الى اسبانيا اسلوب النواعير والسواقي التي توزعها وان سهل بلنسية الذي جاء كانه حديقة واحدة هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقي ونظم العرب ديوان المياه الذي يرجع اليه في مسائل الري » *

وقد لنا الاثار على ان معظم مياه الرافدين قد استغلت في زمن العرب في اغراض الري حيث تمكن العرب من استثمار كل الدلتا تقريبا : فهناك عدة جداول كانت تأخذ من الضفة الفرات اليسرى لتروي اراضي ما بين النهرين الواقعة بين الفلوجة والناصرية كجداول عيسى وصرصر والملك وكوثى ، كما انه كانت هناك جداول اخرى تأخذ من الضفة اليمنى لنهر دجلة كجداول الاسحاقى وجداول دجيل لارواء الاراضي الواقعة شمال بغداد. وقد قام العرب عدا ذلك باستثمار اراضي دجلة الشرقية على طول جدول النهران والاراضي في منطقة واسط ، كما انهم قاموا ايضا باعمار قسم كبير من الاراضي المستنقعة الممتدة بين القرنة والبصرة * وفي وصف المؤرخين لعمران المملكة العباسية ما يشير الى ان القرى الواقعة على نهر دجلة كانت في العهد العباسي متجاورة لدرجة ان الديوك كانت تتجاوب باصواتها من سطح دار الى آخر على طول الطريق بين بغداد والبصرة * ومما ذكره البعض الاخر ان الترغ قد تشابكت في السواد ما بين دجلة والفرات بحيث اصبحت تشكل سورا مشتبكا غير مميز تخترقه انهار من الفرات وقس على ذلك سائر انحاء الدلتا العراقية *

وقد نالت ارض السواد حظا وافرا من العناية في عهد العباسيين حيث كانت السلطة الحكومية تراقب جميع الامور المختصة بالري والزراعة مراقبة دقيقة وتشرف على العناية بالجداول وصيانتها واصلاحها وعلى جميع اعمال الري التي يعتمد عليها الانتاج الزراعي * فكان هناك ديوان خاص يسمى « ديوان الاقربة » تنحصر مهمته بالاشراف على اعمال الري والجداول * فوجه ابو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية كتابا الى الخليفة هارون الرشيد مفاده ان من واجب الحكومة ان تتولى انشاء الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة ، كما ان عليها ان تتولى تطهير الجداول القائمة واصلاحها والمساهمة مع الشعب في تحمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه * ثم يوصي بتشكيل

شرطة نهريّة ذات كفاية والعمل على ازالة العقبات التي تعرقل الملاحة في الانهر وبخاصة في دجلة والفرات .

١٠ - نصب مقاييس على نهر دجلة والفرات وديالى

ومما يدل على اهتمام العرب بالقضايا الفنية التي تتعلق بمياه الانهر (الهيدرولوجيا) انهم اقاموا على نهر دجلة في مدينة بغداد مقياسا لتسجيل ارتفاع مستوى المياه في مختلف المواسم وبخاصة في موسم الفيضان ، حيث اصبحت الحاجة شديدة بعد قيام مدينة بغداد وتوسعها على جانبي النهر لمراقبة حركات الانهر وتسجيل مستواها خاصة في موسم الفيضان حين تفيض الانهر وتهدد المدينة من الجانبين بالغرق . ويستدل مما كتبه المؤرخون على ان هناك مقياسا نصب على ضفتي نهر دجلة في بغداد ، وقد وصل اليها من المصادر القديمة التي سلمت من الضياع والفقدان عدة تسجيلات لمستوى مياه النهر على هذا المقياس . وقد اقتضت على تسجيل حوادث بعض الفيضانات الخطرة فقط وعلى تسجيل الحد الاعظم الذي بلغه مستوى الماء في كل من هذه الفيضانات مع بيان سنة حدوثه وفي اكثر الحالات تسجيل اليوم والشهر . فقد ورد ذكر لنصب هذا المقياس فيما كتبه ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » حوادث سنة ٢٩٣ هـ - ٩٠٦/٩٠٥ م قال : « ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعا وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة علامة لا ذرع تعرف بها مبالغ الزيادات » (٥) . ويلاحظ انه لم يذكر هنا الموقع الذي انشئ فيه المقياس ، ولكن الاشارة اليه بمناسبة ذكر حوادث الفيضان وغرق بغداد يدل على وجه التاكيد على انه كان في مدينة بغداد . وقد نصب مقياسان ، احدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي لمراقبة ارتفاع مياه الفيضان في احد الجانبين عند تعذر الاتصال بينهما في حالات الفيضان العالية . ولا توجد لدينا معلومات عن المدلول الذي استند اليه في نصب هذا المقياس بالنسبة الى مستوى سطح البحر ، الا انه يرجح ان اسفل المقياس كان قد ثبت في قعر النهر او في اوطأ مستوى للمياه في زمن شح المياه ، وكان ارتفاعه خمسا وعشرين ذراعا كما تقدم ، اي ما يساوي نحو اثني عشر مترا ونصف المتر (٦) .

(٥) ج ١ : ٧٥ .

(٦) اختلف المحققون في تقدير طول الذراع العربي بالنسبة للزمن والبلد الذي استعمل فيه ، فقد حقق العلامة الايطالي نلينو طولُه بدقة كما كان مستعملا في بغداد في العهد العباسي وتوصل الى انه يساوي ٤٩٣٣ مليمتر ، اي حوالي خمسين سنتمتر او نصف المتر (« علم الفلك عند العرب » ، ص ٢٨٩) . ويرى البعض الاخر كما ورد في دائرة المعارف الاسلامية ان طول الذراع يساوي نحو خمسة وستين سنتمتر ، وعلى هذا الاساس قدر المرحوم يعقوب سركيس طول المقياس بنحو ستة عشر مترا (جريدة الزمان ليوم ٩ ايار ٩٥٠ ، ص ٤) . اما نحن فنرجح الاخذ بتدقيق نلينو باعتبار الذراع مساويا ٤٩٣/٣ مليمتر كما كان معمولا به في عهد المأمون ، وبذلك يكون طول المقياس مساويا ١٢٣٣ مترا بدلا من ستة عشر مترا .

وقد وقفنا على ذكر اثنتي عشرة قراءة سجلت على المقياس المذكور دونها المؤرخون خلال الفترة التي تمتد من سنة ٢٩٢ هـ، وهي السنة التي انشئ فيها المقياس، الى سنة ٥٧٣ هـ، اي لمدة حوالي ثلاثمائة سنة، منها سبع قراءات لسبعة فيضانات سجلت خلال المائة سنة الاولى (القرن الرابع الهجري) وخمس قراءات لخمسة فيضانات خلال القرنين الخامس والسادس * ويلاحظ في هذه القراءات ان اعلى مستوى دون لهذه الفيضانات هو مادون عن فيضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فسجل مستوى المياه ٢٣ ذراعا يوم ٢٣ رمضان من تلك السنة، ويوافق ذلك احد ايام نيسان من سنة ١١٧٤ م * ولما كان المفروض ان اسفل المقياس وضع في اعلى موضع من عقيق النهر، او في اوطأ مستوى لمياه النهر فيكون الفرق بين هذا المستوى ومستوى ذروة فيضان سنة ٥٦٩ هـ - ١١/٣٥ مترا *

ولاهمية قراءات هذا المقياس من الناحيتين التاريخية والفنية بالنسبة الى ري العراق ندرج فيما يلي جدولاً بها مع تاريخ تسجيل كل منها بالتاريخ الهجري وما يقابله بالتاريخ الميلادي مع بيان المراجع المستند اليها *

المسوب بالذراع	التاريخ الهجري	ما يقابله بالتاريخ الميلادي
٢١	جمادى الاولى	اذار ٩٠٦ (٧)
١٩	شعبان	ايار ٩٤٠ (٨)
١٨	رمضان وشوال	ايار وحزيران ٩٤١ (٩)
٢٠ ½	سنة	سنة ٩٤٢ (١٠)
٢١ ½	رمضان	اذار ٩٤٩ (١١)
٢١	رمضان	نيسان ٩٧٧ (١٢)
٢١	رمضان	نيسان ٩٧٨ (١٣)
٢١	رجب - رمضان	اذار - مايس ١٠١١ (١٤)
٢١	ربيع الاخر	نيسان ١٠٦٢ (١٥)

(٧) النجوم الزاهرة ٣ : ١٥٧ .

(٨) المنتظم ٦ : ٣٠٠ .

(٩) المنتظم ٦ : ٣١٥ - ٣١٦ .

(١٠) المنتظم ٦ : ٣٢٦ .

(١١) المنتظم ٦ : ٣٦٧ .

(١٢) المنتظم ٧ : ٨٣ .

(١٣) المنتظم ٧ : ٨٧ .

(١٤) ابن الاثير ٩ : ١٥٩ .

(١٥) المنتظم ٨ : ٢٢٥ ودول الاسلام ١ : ٢٠٦ .

٢١٤	جمادى الآخرة	٤٦٩	كانون الثاني ١٠٧٧ (١٦)
٢٣	رمضان	٥٦٩	نيسان ١١٧٤ (١٧)
٢٠	شوال	٥٧٣	نيسان ١١٧٨ (١٨)

وبالنظر لما كان لفيضان نهر الفرات من تأثير في الجانب الغربي من بغداد ولفيضان نهر ديالى من تأثير في الجانب الشرقي منها، فقد نصب مقياس على نهر الفرات ومقياس آخر على نهر ديالى . وقد وقفنا على ثلاثة تسجيلات لقراءة المقياس الاول فيما بين سنة ٣١٦ هـ وسنة ٣٢٩ هـ ولما كان ذلك قد جاء دون ذكر للموقع الذي نصب فيه المقياس فليس لدينا اية معلومات عن موقعه من نهر الفرات ، الا اننا نرجح انه انشيء في مدينة الانبار بالمقياس الى اهميتها في العهد العباسي ، بدليل ان اول خليفة عباسي اتخذها عاصمة له قبل انشاء مدينة بغداد وبناء على ورود ذكر الانبار في عدة حوادث من اخبار فيضان نهر الفرات . واما المستويات التي سجلت على هذا المقياس فهي كما يلي : -

المستوى بالذراع	التاريخ المهجري	مايقابله بالتاريخ الميلادي
١٢٤	٣١٦	٩٢٨ (١٩)
١١	شعبان ٣٢٨	ايار ٩٤٠ (٢٠)
١١	٣٢٩	٩٤١ (٢١)

واما مقياس نهر ديالى فقد وقفنا على قراءة واحدة سجلت عليه وكان ذلك في فيضان سنة ٤٥٤ هـ - ١٠٦٢ م حيث ورد ذكر زيادة تامسرا (نهر ديالى) ٢٢ ذراعا وكسرا (٢٢) والارجح ان هذا المقياس كان قد نصب في مدينة بعقوبا لاهمية موقعها على طريق خراسان العام .

١١ - مشاريع نهر الفرات الاوسط

١ - مشروع سد حلبيبة القديم :

كان الاقدمون قد اقاموا مشروعا على نهر الفرات الاوسط في المضيق الذي تشكله جبال حم عبر النهر امام خرائب حلبيبة زليبة الواقعة على مسافة ٩٢ كيلومترا من شمال مصب الخابور .

(١٦) المنتظم ٨ : ٣٠٥ .

(١٧) المنتظم ١٠ : ٢٤٤ - ٢٤٧ ؛ ابن الاثير ١١ : ٢٧٠ ؛

(١٨) المنتظم ١٠ : ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(١٩) المنتظم ٦ : حوادث سنة ٣١٦ هـ .

(٢٠) المنتظم ٦ : ٣٠٠ .

(٢١) المنتظم ٦ : ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢٢) المنتظم ٨ : ٢٢٥ .

والمشروع يتألف من سد انشيء في المضيق المذكور عبر نهر الفرات لرفع مستوى المياه في موسم الفيضانات وارواء السهل الخصيب الواقع ما بين الضفة اليمنى لنهر الخابور والضفة اليسرى لنهر الفرات بالطريقة السيجية * وقد ذكر المستر جيسني في كتابه عن رحلته المساحية الى العراق في سنة ١٨٣٦ ان مجرى الفرات في المضيق لم يزد عرضه على ٢٥٠ ياردة وعمقه على سبعة فاثومات اي ٤٢ قدما *

وتوجد الان آثار لجدول قديم بجوار مضيق حم يسميه الاهلون « نهر المصران » ، ويمتد هذا الجدول من ضفة الفرات اليسرى في الاتجاه الجنوبي الشرقي حتى يصل الى حد رافد الخابور ، وقد عزا ايسيدورس حفره الى سمير اميس ملكة آشور، وقد ورد ذكره في رحلة زينوفون (٤٠١ ق.م) فسماه « اراكسيس » * وقد اختلف المؤرخون في هذه التسمية اذ ذهب بعضهم الى ان النهر اراكسيس هو الرافد الخابور * ومهما كان الامر فالظروف المحيطة تدل دلالة واضحة على ان الجدول المذكور هو جزء من مشروع سد حم وكان الغرض من حفره ارواء السهل المجاور (انظر « المصادر عن ري العراق » للدكتور احمد سوسة ، ص ٩٢ ، ٩٦ ، ١١١ - ١١٢ ، ١٢٧-١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢-١٣٣) *

ب - نهر سعيد القديم :

وتدل الروايات التاريخية على ان هناك جدولاً قديماً ايضاً يسمى نهر سعيد كان قد انشيء في زمن العرب لارواء بعض اراضي منطقة دير الزور الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، فكان هذا الجدول يتفرع في نقطة تقع على بعد حوالي ١٠٧ كيلومترا من جنوب مضيق حم او على مسافة ١١ كيلومترا من جنوب دير الزور ثم يمتد في السهل الواقع غربي الفرات مارا بالرجبة والدالية وبعد ذلك يعود فيصب في الفرات جنوبي مصب الخابور بمسافة قليلة *

ويقال ان هذا النهر كان قد حفره سعيد بن عبد الملك الاموي الذي كان حاكماً على الموصل، وان الاراضي التي يمر النهر منها كانت بالاصل عبارة عن سلسلة مستنقعات تكثر فيها السباع ، غير انه بعد ان منحت الى سعيد من قبل اخيه الخليفة الوليد قام باعمارها بحيث اصبحت صالحة للزراعة والسكنى *

وقد وصف ابن سرايون هذا النهر في القرن التاسع الميلادي فقال : « يحمل من الفرات نهر سعيد اوله تحت القبة التي تعرف بقم نهر سعيد تمر الضياع التي في غربي الفرات وتمر فتسقي ضياع الرجبة وتصب في الفرات فوق دالية مالك بن طوق بعد ما يتفرع منه انهار في ضياع الدالية في الجانب الغربي » * وقد ذكر قدامة ان نهر سعيد كان يأخذ من الفرات في نقطة تقع على بعد ثمانية فراسخ من شمال قرقيسيا الواقعة بالقرب من مصب الخابور *

ج - مشروع سكير العباس القديم ووادي الثرثار :

وقد ايد ابو الفداء في كتابه « تقويم البلدان قديم قد يصح تسميته باسم » مشروع سكير العباس « ، ذلك ان سدا شييد فوق ملتقى الرافد هرماس او نهر نصيبين بالخابور في موقع «سكير العباس» لتحويل مياه الرافد الثرثار الذي كان يتفرع من فوق السد مباشرة وينتهي الى دجلة في جوار تكريت * وكلمة سكير تصغير سكر السد الذي يقام على مجرى النهر لرفع مستوى المياه فيه ، وكانت مياه نهر هرماس بفضل هذا السد تحول الى نهر الثرثار * اما نهر الثرثار فكان يجتاز منطقة السنجار ثم يقطع جبل حميرين ويعدان يمر بالحضر يصب في دجلة في جوار تكريت * وقد ذكر ياقوت ان مدينة الحضر تقع على نهر الثرثار على وسط الطريق بين سنجار وتكريت ، كما ذكر ياقوت ان السفن كانت تسير في نهر الثرثار وكانت عليه قرى ومدن وعمارات ، ومما قاله ابن سراييون « ان نهر الثرثار يخرج من نهر الهرماس اوله من سكير العباس في وسط البرية ويصب في دجلة اسفل من تكريت بعد ان يمر بالحضر ويقطع جبل بارما » *

وقد ايد ابو الفداء في كتابه «تقويم البلدان» انصباب نهر الثرثار بدجلة قال : « فيتشعب من الهرماس نهر الثرثار ويمر بالحضر في دجلة اسفل من تكريت وقيل فوق تكريت بفرسخين » * هذا وذكر ابن الاثير ايضا ان نهر الثرثار « يفرغ في دجلة بين الكحيل وراس الايل من عمل الفرج » * كما ايد ابن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » انصباب نهر الثرثار في دجلة ، الا انه لم يعين النقطة التي كان يصب فيها بدجلة * ويوجد الان واد قديم ينتهي الى دجلة قرب تكريت يعرف باسم « وادي شيشين » فمن المحتمل ان يكون من آثار نهر الثرثار * يتضح من ذلك ان بحيرة الثرثار الحالية الواقعة جنوب الحضر والتي يصب فيها وادي الثرثار في الوقت الحاضر لم تكن موجودة في ذلك العصر عندما كان وادي الثرثار يصب في نهر دجلة في جوار تكريت * اما تكوين البحيرة فقد كان للعوامل الطبيعية دور بارز في ذلك كتأثير الزلازل والبراكين والرياح وغيرها التي تساعد على حدوث الانفلاق في الطبقات الارضية * وربما كان احداث حدث من هذا النوع هو الانخساف الارضي الذي ظهر في بادية الشام في داخل العراق في شهر آذار من سنة ١٩٤٤ في جوار « الشبجة » على مسافة ١٦٠ كيلومترا من مدينة النجف غربا اثر هزة ارضية فانهارت الارض وتكونت فوهة عمقها حوالي ٩٠ قدما وقطرها ١٢٠ قدما ، وعلى هذا يكون حجم الاتربة التي غارت تحت الارض ١٣٥ مليون قدم مكعب او حوالي ٣٧٩٠٠٠ طن وزنا * وقد علق جيولوجي الحكومة على هذا الحادث بقوله « ان كثير من الانفلاقات والتجاويف والفوهات الارضية تظهر في مناطق البادية الكلسية في العراق وسبب وجودها او توسعها يرجع الى عوامل الذوبان المستمر بسبب وجود المياه الجوفية ، وقد تتوسع هذه الفوهات في بعض الاحيان الى حد كبير نتيجة للهبوط او للانخساف الارضي الذي يرافق الذوبان المذكور * ومما يذكر في هذا الصدد ان هذه المياه الجوفية متأتية في الاصل دون ماريب من سقوط الامطار في مناطق البادية المجاورة لها * «انظر :

« ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » للدكتور احمد سوسة ج ٢ ، ص ٥١٤-٥٦٣ » *

كان نهر الفرات في هذا العصر يغذي بعد دخوله حدود الدلتا أربعة أنهر رئيسية كانت كلها تتفرع من ضفته اليسرى وتتجه بالتسلسل الواحد تلو الآخر نحو نهر دجلة ، فنصب فيه بعد ان تمر بالمدن والقري وتروي الاراضي الزراعية الواقعة بين الفرات ودجلة في المنطقة التي تمتد بين بغداد والكوت وبين القلوجة والناصرية على نهر الفرات . واتجاه هذه الانهر من الفرات نحو دجلة فرضته طبيعة أراضي ما بين النهرين التي تنحدر من الفرات نحو نهر دجلة ، وهذا هو نفس الاتجاه الذي كانت تسير فيه الأنهر القديمة مثل نهر ملكا ونهر كوش القديمين * وكانت الانهر الاربعة هذه وهي أنهر عيسى وصرصر والملك وكوش على التوالي ، تسير متوازية مع بعضها في امتدادها نحو نهر دجلة ومدينة بغداد الغربية (مدينة المنصور المدورة) *

١ - نهر عيسى ومدينة بغداد الغربية (مدينة المنصور المدورة)

كان هذا النهر أول الانهر الاربعة التي تأخذ من نهر الفرات بعد دخوله الدلتا ويتفق المحققون على أنه كان يسير في اتجاه مجرى الصقلاوية القديم (مجرى الكرمة) الذي يقطع الاراضي المنبسطة الواقعة بين الفرات ودجلة بمنخفض عقروق غربي بغداد ثم يصب في دجلة جنوبي بغداد في ميزل الخر او الوشاش الحالي * وقد ذكر لسي سترانج في كتابه «بغداد في عهد الخلافة العباسية» ان نهر عيسى كان فوق هذه الجداول واغزرها ماءً ويروي نصف أراضي بغداد الغربية *

ومما يؤيد ان نهر عيسى هذا كان يمر بنفس المنطقة التي يمر بها مجرى الصقلاوية الحالي هو ان بعض الأنهر والمواقع في منطقة الصقلاوية لاتزال تعرف بأسم عيسى كتل عيسى مثلا الذي يقع في ذقائب جدول الصقلاوية وشاخة البوعيسى المتفرعة من الضفة اليمنى من فرع الكصاوي (أحد فروع جدول الصقلاوية) والعيساوية (أحد شاخات فرع علي السليمان) الخ *** (٢٣)

ويروي المؤرخون ان نهر عيسى حفر في عهد الفرس ثم أعاد حفره الامير عيسى بن علي عم المنصور ووسعه بحيث أصبح صالحا للملاحة بين الفرات ودجلة فسماه الناس بعد ذلك بأسمه، وكان ينفرد بأهميته حيث كان يعد من أعظم الجداول القريبة من مدينة بغداد وهو يصل الانبار بالعاصمة بغداد ، وكانت الانبار من اهم المدن في عهد العرب ولم تكن أقل اهمية في العهد السابق اذ كان ولعل اسم الانبار قد اشتق من ذلك * (٢٤) * الساسانيون قد جعلوها مذكر الجيوب لجيوشهم،

(٢٣) ان جدول الصقلاوية الحديث هو اول الجداول الفنية التي نظمت بعد الحرب العالمية الاولى في سهل دلتا ما بين النهرين لارواء الاراضي المنحدرة في اتجاه منخفض عقروق الذي ينتهي غرب مدينة بغداد فيتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفرات في نقطة تبعد ١٤ كيلومترا شمال مدينة القلوجة فيمتد مسافة ١٨ كيلو مترا باتجاه المجرى القديم لنهر الصقلاوية، ثم يتفرع الى فرعين، الفرع الشمالي المعروف باسم جدول علي السليمان وطوله حوالي ١٥ كيلومترا والفرع الجنوبي المعروف باسم جدول ابراهيم العلي وطوله ٢٨ كيلومترا . اما مساحة الاراضي التي يرويها المشروع فتبلغ حوالي ٢٠٠٠٠٠٠ مشارة .

(٢٤) تقع اطلال مدينة الانبار على الضفة اليسرى لنهر الفرات جنوب قرية الصقلاوية الحالية وعلى

وصف ابن سريون هذا الجدول وصفا جليا فدون أسماء القرى والضياح الواقعة على جانبيه وبين مواقع القناطر والجسور عليه، ويؤخذ من وصفه أن النهر كان يسحب الماء من جنوب الأنبار مباشرة • وكان نهر عيسى الرئيسي ينتهي الى دجلة جنوب بغداد • وكان قد أنشئ سد من الحجر على مجراه قبل مصبه في دجلة ، وذلك لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسيين : شمالي وجنوبي ، يتفرعان من الجانب الايسر للنهر من امام السد ويجريان متوازيين نحو الشرق ثم ينتهيان الى نهر دجلة فيصبان في وسط بغداد الحالية بعد ان يسقيا الاراضي المجاورة لهما بين النهر الرئيسي ونهر دجلة • وكان هذا السد يحول دون وصول السفن الى دجلة ، لذلك كانت تنقل البضائع من السفن التي تصل الى هذا الموضع الى سفن اخرى وراء السد لمواصلتها نقلها الى بغداد التي كانت مركزا تجاريا رئيسيا في ذلك العصر • وقد نشأت في زمن العرب بلدة في هذا الموضع سميت « المحول » ، اي الموضع الذي تحول فيه البضائع وغيرها من شحن السفن • وكان يعرف الجدول الشمالي باسم « نهر الصراة » وقد بقي محتفظا بأسمه الى ما بعد تشييد مدينة المنصور حيث صار يسمى « نهر الصراة العظمى » وقد سمي هذا الاسم لتمييزه عن جدول آخر يتفرع منه كان يعرف باسم « الصراة الصغرى » وكان هذا الجدول الاخير يتفرع من عمود الصراة العظمى فيسقي قسما من البساتين الواقعة على الجانب الايسر من الصراة العظمى ثم يعود فيصب في الجدول الرئيسي الذي يتفرع منه •

اما الجدول الجنوبي الذي كان يتفرع من امام السد أيضا فكان يعرف باسم « نهر الرفيل » والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر هو اسم دهقان من الفرس أسلم على يد سعد بن أبي وقاص ، ثم صار يعرف في العهد العربي باسم نهر عيسى نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور الذي قام باعادة حفره وشيّد عند مصبه في دجلة قصراً سمي باسم « قصر عيسى » • واما النهر الرئيسي الممتد بين الفرات ودجلة فصار يعرف باسم نهر عيسى الاعظم بأعتماده النهر الرئيسي الذي يمون نهر عيسى (الفرع) بالمياه • وكان يتشعب من الضفة اليسرى لنهر الرفيل في موضع يبعد نحواً من ميل تحت صدره فرع كان يعرف باسم « نهر كرخايا » فيمتد بموازاة نهر الرفيل من الشمال مؤلفاً شبكة

بعد حوالي ستة كيلومترات من جنوب صدر جدول الصقلاوية الحالي • وكان الفرس يسمونها « فيروز سابور » كناية من اسم بانيها الملك شابور (٢٤١-٢٧٢ م) ، وقد أصبح اسمها في العهد العربي فيروز سابور وهو يشمل ضاحية الأنبار بما فيها من القرى على ان بعض مؤرخي العرب اعتبرها من مدائن كورة سامراء ، وقد اطلق اميان مرقلان على المدينة اسم پيريسابوراس (Pirisaboras) وذلك عند وصفه لحملة جولييان (٣٦٣ م) كما انه وصف سورها المزدوج المنيع •

هذا وقد كان للأنبار مكانتها السامية في زمن العرب اذا اتخذها الخليفة العباسي الاول ابو عبدالله السفاح (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) عاصمة لمملكته وقد توفي في القصر الذي شيده فيها ، وقد ذكر ياقوت ان ابا جعفر المنصور (١٣٦ هـ / ٧٥٤ م) اخا السفاح سكنها أيضا ردحا من الزمن ثم انتقل منها الى العاصمة الجديدة بغداد • وقد زعم المستوصفي الذي زارها في القرن الرابع عشر الميلادي ان طول سورها زهاء خمسة الاف خطوة •

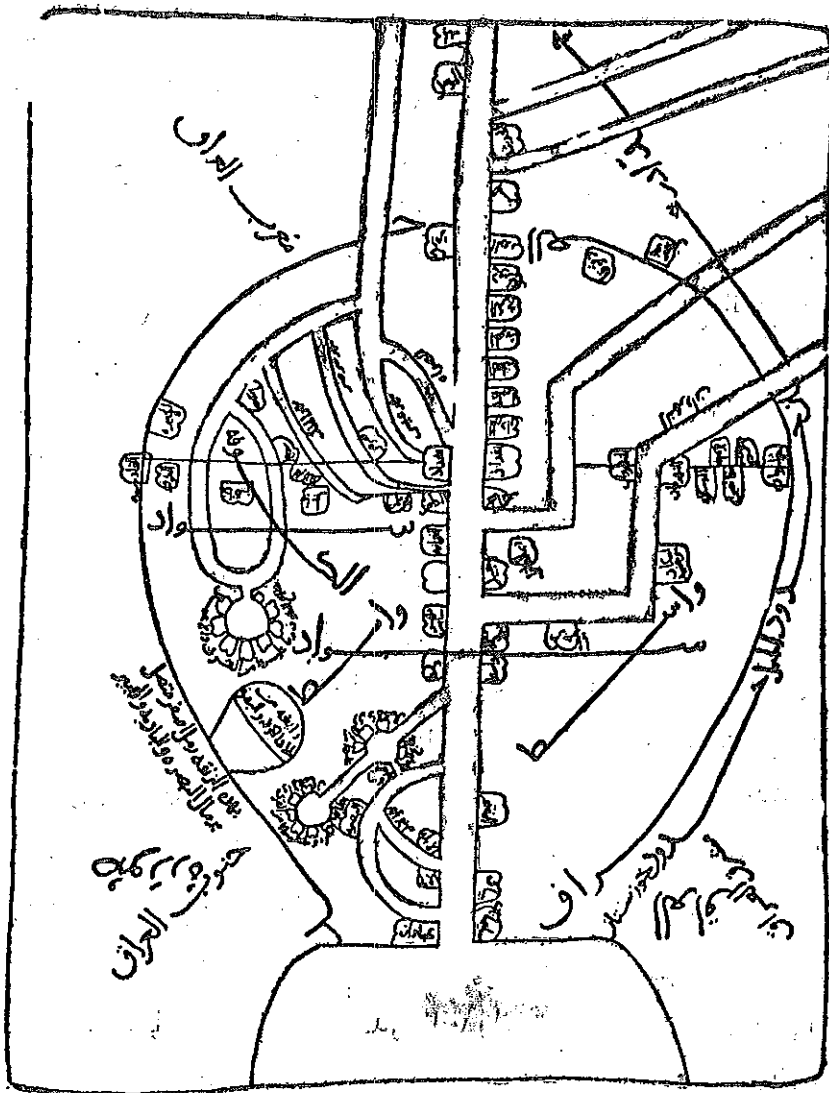
من القنوات بين نهر الصراة ونهر الرفيل بعضها يصب في الصراة والبعض الآخر في دجلة وفي نهر الرفيل نفسه ، ثم يعود فيصب في نهر الرفيل بعينه

وكان على طول نهر عيسى (الفرع) بين المحول ودجلة عشر قناطر كل منها يحمل أسم الررض الذي تقع فيه ، وكانت القنطرة الاخيرة تسمى قنطرة بني زريق وكان طريق البصرة العام يعبر فوقها * وكانت هذه القناطر تضمن المواصلات بين قسمي الكرخ من مدينة بغداد وكان سوق في كل قنطرة من هذه القناطر *

ب - نهر صرصر :

أما الجدول الثاني في سلسلة الجداول الاربعة فهو الجدول الذي كان يعرف بأسم « نهر صرصر » ، فكان هذا الجدول يسير في اتجاه جدول أبي غريب الحالي * (٢٥) فكتب ابن سراييون (القرن العاشر الميلادي) في صدد هذا الجدول قال : ويحمل من نهر القرات أيضا نهر يقال له نهر صرصر أوله أسفل من دما بثلاثة فراسخ وهو نهر كبير ويسقى منه بدوالي وشوايف وعليه جسر وضياح وقرى ويمر ببعض بادوريا ومصبه في دجلة بين بغداد والمدائن وهو فوق المدائن بأربعة فراسخ في الجانب الغربي * وبعد حوالي سبعين سنة كتب ابن حوقل أيضا في وصف هذا الجدول قال : وبين بغداد والكوفة سواد مشترك غير متميز تخترق اليه أنهار من القرات فأولها ما يلي نهر صرصر وعليه مدينة صرصر عامرة النخيل والزروع وسائر الثمار قريبة من بغداد على ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومترا) (انظر الرسم رقم ٣٨ صورة العراق لابن حوقل) * وقد جاء فيما كتبه أبو الفداء (٧٢١ هـ -

(٢٥) ان جدول ابي غريب الحديث يتفرع من الضفة اليسرى لنهر القرات في تقطة تقع على بعد حوالي ثمانية كيلومترات جنوب الفلوجة عند خط العرض (٣٣ درجة و ١٨ دقيقة) ، فيشير اولا نحو الجنوب الشرقي لمسافة تقرب من ١٢ كيلومترا ثم ينحرف قليلا الى جهة الشمال الشرقي بضعة كيلومترات ويعود بعد ذلك فيسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي مرة اخرى حتى يصل الى الكيلومتر ٢٣٨٥ من طول الجدول ويقع هنا ناظم قاطعي ينشطر الجدول عنده الى فرعين ، الفرع الشمالي والفرع الجنوبي ، فالفرع الشمالي هو عبارة عن امتداد جدول ابي غريب نفسه ويبلغ طوله زهاء ٢٦ كيلومترا ، اما الفرع الجنوبي فيتفرع من الضفة اليمنى للجدول الرئيسي في مقدم الناظم القاطعي مباشرة ويمتد في الاتجاه الجنوبي ويبلغ طوله ٢١٦٧٥ كيلومترا اما مساحة الاراضي الزراعية التي يرونها هذا المشروع فتبلغ ٢٦٩٠٠٠٠ مشاركة (تساوي المشاركة ٢٥٠٠ متر مربع) .



المرتسم رقم (٣٨) - صورة العراق لابن حوقل

١٣٢١ م) ما يؤيد ان نهر صرصر كان يتفرع في نقطة أسفل صدر نهر عيسى ، فقال « انه يسير في سواد العراق الذي بين بغداد والكووفة حتى يصل الى صرصر ويسقي ما عليه من البلاد ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن » • اما الجسر الذي يشير اليه ابن حوقل فهو بدون شك الجسر الواقع على طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكووفة ، وقد ايد ابن رسته (٢٩٠هـ-٩٠٣م) ما ذكره ابن حوقل حول هذا الجسر فقال انه يقع على بعد عشرة اميال من جنوب بغداد ، واما مدينة صرصر التي ذكرها ابن حوقل فتقع على الجسر المذكور • وقد ايد ذلك حاج خليفة (١٦٠٤م) ، الا انه اضاف قائلا ان هناك مدينتين ، مدينة صرصر العليا ومدينة صرصر السفلى ، فتقع الاولى بجوار بغداد على نهر عيسى والثانية على طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكووفة وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بغداد •

ج - نهر الملك :

وكان الجدول الثالث المسمى بـ (نهر الملك) يسير الى الجنوب من صرصر وكان من الانهر المهمة التي كانت تتفرع من نهر الفرات وتقطع ارض ما بين النهرين جنوب بغداد * فكان عليه مثل نهر صرصر جسر على طريق الحج الرئيسي كما كان عليه مدينة تعرف بمدينة نهر الملك * ولعل نهر الملك كان يهتفي اثر نهر ملكا القديم (انظر ما تقدم عن نهر ملكا الفقرة ٧ من الفصل الحادي عشر) ، على انه ليس ثمة ما يرشدنا الى تعيين الموقع الذي كان يتفرع منه النهر في ذلك الوقت بالضبط ، اذ لو استثنينا ابن سراييون لوجدنا ان المؤرخين العرب لم يوردوا ذكر نهر الملك الا بمناسبة كتابتهم عن طريق الحج بين بغداد والكوفة * واليك ما كتبه ابن سراييون في هذا الصدد قال : « ويحصل من الفرات ايضا نهر يقال له نهر الملك اوله اسفل من فوهة نهر صرصر بخمسة فراسخ وهو نهر كثير الضياع خصب وعليه جسر وقرى كثيرة وعمارات ويتفرع منه انهار كثيرة وهو طسوج من السواد ومصبه في دجلة اسفل من المدائن بثلاثة فراسخ من الجانب الغربي » * وكان على هذا النهر جسر على طريق بغداد - الكوفة يقع عند المدينة المعروفة باسم مدينة نهر الملك، وقد ذكر ابن رسته ان هذا الجسر يقع على مقربة من الجسر على نهر صرصر بمسافة سبعة اميال عن الاخير وان منطقة نهر الملك اشتهرت بنخيلها وارضها الزراعية الخصبة * وما كتبه ابن حوقل (ان نهر صرصر وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة اكبر من صرصر عامرة باهلها وهي اكثر نخلا وزرعا وثمارا وشجرا منها وليس بين بغداد والكوفة مدينة اكبر منها) * (انظر المرتسم رقم ٣٨ « صورة العراق لابن حوقل ») *

ويتضح من روايتي ابن سراييون وابن رسته ان نهر الملك كان يتفرع من نهر الفرات في نقطة تقع جنوب نهر صرصر فافاد الاول بان صدر الجدول يقع على بعد خمسة فراسخ من جنوب صدر نهر صرصر ، كما وذكر الاخير ان جسر نهر الملك يقع على بعد سبعة اميال من جنوب جسر نهر صرصر ، ذلك ما يؤيد ان نهر الملك كان يجري بالقرب من جدول الرضوانية الحالي ، وهذا ما يؤيده لي سترانج في بحوثه عن جداول العراق القديمة (٢٦) *

د - نهر كوثي :

وقد اشتهر نهر كوثي في العصر الاسلامي العربي ايضا بحيث كان اخر الانهر الاربعة الرئيسية التي كانت تأخذ من نهر الفرات وتنتهي عند نهر دجلة ، وقد اجمع المؤرخون العرب على ان نهر

(٢٦) يلاحظ ان الدكتور موسيل عين الموضع لصدر نهر الملك في موقع صدر نهر الحمودية وهذا يخالف ما جاء في روايتي ابن سراييون وابن رسته ، كما انه لا يتفق مع اتجاه نهر الملك الذي نشاهد آثاره اليوم بالقرب من جدول الرضوانية ، اذ لا يخفى ان صدر جدول الحمودية القديم يقع على بعد ما يقارب الخمسين كيلومترا جنوب صدر جدول ابي غريب (نهر صرصر) ، لذا فلا يمكن الاخذ بنظرية موسيل هذه .

كوثى كان في ذلك العصر يجري في جنوب نهر الملك يصب بدجلة جنوب مصب نهر الملك بقليل ، وذلك بعد مروره بمدينة كوثرى . والارجح ان نهر كوثرى هذا كان يقتفي اثر النهر الذي كان قد حفر من الجانب الايسر لنهر الفرات لايصال المياه الى مدينة كوثرى وذلك بعد ان تحول مجرى نهر الفرات من اتجاه مدينة كوثرى الى اتجاه بابل (انظر ما تقدم حول ذلك في الفقرة ٤ من الفصل التاسع) وقد ذكر ابن رسته ان هناك جسرا اقيم على نهر كوثرى لتأمين مواصلة السير في طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكوفة كما كانت عليه الحال في نهري صرصر والملك ، وان هذا الجسر كان يقع على بعد اربعة اميال من جنوب جسر نهر الملك .

والظاهر ان مدينة كوثرى كانت في العصر العربي تقسم الى قسمين وهما كوثرى الطريق وكوثرى ربا وكان نهر كوثرى يمر بالقسم الاخير من المدينة، وقد وصفها ابن حوقل بقوله : « وكوثرى بلدان وناحيتان تعرف احدهما كوثرى الطريق والاخرى بكوثرى ربا . . . مدينة يزعم قوم انها كانت اكبر من بابل » . وقد ايد ذلك ياقوت ثقلا عن أبي بكر احمد بن أبي سهل الحلواني قال : « وكوثرى العراق كوثران احدهما كوثرى الطريق واخر كوثرى ربا وبها مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وبها مولده، وهما من ارض بابل وهما ناحيتان » .

اما الموقع الذي كان يأخذ من عنده نهر كوثرى فليس بين المؤرخين العرب من كتب عن ذلك الا ابن سراييون الذي وصف هذا النهر فقال : « ويحمل من نهر الفرات ايضا نهر يقال له نهر كوثرى اوله اسفل من نهر الملك بثلاثة فراسخ وهو نهر كثير الضياع والقرى وعليه جسر يتفرع منه انهار تسقي طسوج كوثرى من كورة اردشير بابكان وبعض طسوج نهر جوير ويمر بكوثرى ربا ويصب في دجلة اسفل المداين بعشرة فراسخ في الجانب الغربي » (٢٧) .

ويرى الدكتور موسيل ان نهر كوثرى كان يأخذ من عند المنطقة المعروفة اليوم باسم المجصة وهذه تقع بجوار صدر جدول الاسكندرية الحديث . وقد كتب المستر جيسني في بحثه عن الفرات في وصف نهر كوثرى قال : « ان نهر كوثرى يجري بصورة موازية تقريبا الى الثلاثة انهر الاخرى (يعني انهر عيسى وصرصر والملك) فيأخذ من عند تل محمد (٢٨) ثم يقطع الاراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات وفي منتصف الطريق يقسم الى قسمين ، الفرع الشمالي الذي يجري في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو نهر دجلة والفرع الجنوبي الذي كان يجري في الاتجاه الجنوبي ، أي نحو بابل مارا بخان الاسكندرية .

(٢٧) لقد ذكر ياقوت وقدامه ان نهر جوير هذا كان يقع في مقاطعة اردشير بابكان التي سميت بهذا الاسم تخليدا لاردشير مؤسس المملكة الساسانية .

(٢٨) يقع تل محمد على مسافة ٤٢ كيلومترا بطريق النهر جنوب الفلوجة ، أي على مسافة ١٤ كيلومترا تقريبا شمال صدر اليوسفية الحالي .

هـ - نهر سورا والعقمي :

وعلى مسافة ستة فراسخ (حوالي ٣٠ كيلومترا) من صدر نهر كوئي جنوبا كان مجرى الفرات ينقسم في نقطة تقع في جوار بلدة الاسكندرية الحالية قسمين ، قسم يدعى نهر سورا وهو اكبرهما يمتد شرقا نحو نهر دجلة ، وقسم يحمل اسم الفرات يجري جنوبا نحو الكوفة حيث يقع جسر الكوفة ثم ينتهي الى البطائح» كان يعرف نهر سورا في القسم الاعلى من مجراه باسم «سورا الاعلى» ، فيتفرع منه في هذا القسم عدة فروع تسقي طسوج سورا وريسا وباروسا ويمر بازاء مدينة قصر ابن هبيرة بينهما اقل من ميل * وهناك على النهر جسر وهو جسر سورا حيث تقع مدينة سورا * وقصر ابن هبيرة هذا نزله السفاح واستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد في بنائه وسماه الهاشمية * وعلى مسافة فرسخ شرقي قصر ابن هبيرة كان يتفرع من نهر سورا الاعلى نهر يسمى ابو الرحا يمر بمدينة قصر ابن هبيرة ويعود فيصب في نهر سورا الاعلى نفسه تحت المدينة بفرسخ * ثم بعد ان يستمر النهر الرئيسي في جريه شرقا مسافة ستة فراسخ يتفرع من جانبه الايمن فرع يقال له نهر سورا الاسفل ينحدر جنوبا نحو بابل كانت على فوهته قنطرة عظيمة يقال لها قنطرة القامغان ، وبعد ان يمر هذا الفرع بقرى ويتفرع منه انهار كثيرة تسقي منطقة بابل باسرها يصب في نهر البداة الذي يأخذ من الفرات في جوار الكوفة ويسقي سواد الكوفة الذي في شرق الفرات * وعلى مسافة ستة فراسخ على مجرى نهر سورا الاسفل يتفرع من جانبه الايسر نهر يقال له الترس فيجري الى الجنوب الشرقي وبعد ان يمر بقرى وضياح وتتفرع منه انهار تسقي سواد الكوفة او بعضه يصب في نهر البداة ايضا شرقي مصب نهر سورا الاسفل في البداة *

واذا جاوز نهر سورا الاعلى قنطرة القامغان التي في صدر نهر سورا الاسفل سمي هناك الصراة الكبيرة يمر بقرى وضياح وتتفرع منه هناك انهار تسقي الضياح التي في غريه حتى يصل الى مدينة النيل وعليه هناك قنطرة يقال لها الماسي، فاذا جاوز النهر القنطرة سمي النيل نسبة الى مدينة النيل فيمر بقرى وضياح منه هناك انهار تسقي المنطقة التي في غريه * ويتفرع من الجانب الايمن للنهر الرئيسي في هذه المنطقة نهر يدعى «صراة جاماس» وبعد ان يدور هذا الفرع حول مدينة النيل يعود فيصب في النهر الرئيسي اسفل مدينة النيل بثلاثة فراسخ * ثم يمر نهر النيل بقرى وعمارات الى موضع يقال له الهول بينه وبين النعمانية التي على شاطئ دجلة اقل من فرسخ * ومن هناك يطيف النهر فيمر الى نهر سابس القرية الراكبة دجلة ويسمى هناك نهر سايس ويصب في دجلة اسفل من القرية بفرسخ *

وقد سمي ابن سراييون المجرى الذي ينتهي الى الكوفة باسم نهر الفرات بينما يسميه كل من المسعودي وقدامة العلقمي ، فبعد ان يشير المسعودي الى الانهر الاربعة التي تصب في دجلة

يقول : « ثم ينقسم الى جهتين قسم منهما يتوجه بسيره نحو الغرب يسمى سورا يمر بمدينة سورا الى النيل والطفوف ويسقي كثيرا من اعمال السواد ثم ينتهي جميع ذلك الى بطيحة البصرة وواسط التي ينتهي منها الى هذا البحر في دجلة العوراء » * (التنبيه والاشراف ، ص ٥٢ ، سهراب ١٢٤-١٢٥ ، موسيل ، الفرات الاوسط ، ٢٧٤-٢٧٧ ، كتاب الخراج لقدامة ، المكتبة الجغرافية العربية ، ٢٣٣) *

وقد جاء ذكر العلقمي ايضا في «تاريخ الدولة السلجوقية» للبنداري الاصفهاني (١٢٢٦ م) حيث ورد فيه ان جدول العلقمي كان يمر بالمشهدين (اي كربلاء والنجف) وقد تم تطهيره وترميمه في سنة ٤٧٨ هـ (٥٨٥ م) ، كما ورد ذكره في كتاب النويري (١٣٣١ م) «نهاية الارب في فنون الادب» (انظر عن اثار هذا الجدول كتاب «بقية النبلاء في تاريخ كربلاء» للسيد عبدالحسين الكليدار ، ص ٨٢ - ٨٣) *

و - خندق سابور ونهر كرى سعده

ويؤخذ من روايات المؤرخين ان هناك نهرا يعرف باسم «خندق سابور» كان يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من موضع يقع بالقرب من هيت فيمتد على طول الحدود الغربية للعراق المحاذية للبادية وينتهي في البحر قرب مصب نهر بوبيان وهو مدخل مصب الفرات القديم الواقع على بعد حوالي ٢٠ ميلا من غربي شط العرب * وكان هذا النهر يقتفي اثر نهر العلقمي في قسمه الجنوبي وقد اتخذ قاعدة للذود عن غزو العرب لتخوم العراق الغربية * وقد نسب بعض المؤرخين حفر هذا النهر العظيم الى نبوخذ نصر (٦٠٤-٥٦١ ق م) بينما نسبه البعض الاخر الى الملك انوشروان الذي حكم بين سنة ٥٣١ و ٥٧٨ الميلادية * فكتب ياقوت في وصف هذا النهر قال : «ولما ملك انوشروان بلغه ان طوائف من الاعراب يغيرون على ما قرب من السواد الى البادية فأمر بتحديد سور مدينة تعرف بالوس كان سابور ذو الاكتاف (٣٠٩-٣٧٩ م) بناها وجعلها مسلحة لحفظ ما قرب من البادية وامر بحفر خندق من هيت يشق طرف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعا الى اهل البادية عن السواد» *

وقد ايد موسيل العالم الجيکوسلوفاسكي الذي قام بتتبعاته في العراق بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٥ انه شاهد اثار نهر قديم يبدأ من نقطة تقع على بعد بضعة كيلومترات من جنوب هيت ، وقد لاحظ ان ضفافه في هذا القسم مرصوفة بالاحجار بصورة محكمة * وقد اشار سير ويليام ويلكوكس في الخارطة التي نظمها لمقاطع نهر الفرات بين هيت والشامية الى اثار لنهر قديم يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات في نقطة تقع على مسافة حوالي ١٧ كيلومترا من جنوب مدينة هيت ، ويغلب على الظن بان تلك الاثار تعود لذلك النهر (راجع الخارطة رقم ٧ من خارطات سير ويليام ويلكوكس الملحقة بتقريره عن ربي العراق) *

ويذهب البعض الى ان النهر المعروف باسم كرى سعده الذي لا تزال آثاره ظاهرة في معظم اقسامه من جهة غرب الفرات هو نفس النهر الذي نسب الى نبوخذ نصر ثم الى الملك انوشروان، فقد كتب البلاذري (٢٥٥هـ - ٨٥٥م) في وصف نهر نسيبه الى سعد بن عمرو بن حرام قال: «وحدثني ابو مسعود وغيره ان دهاقين الانبار سألوا سعد بن ابي وقاص ان يخبرهم نهرا كانوا سألوا عظيم الفرس خفره لهم، فكتب الى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بخفره لهم» *
 ويميل الدكتور موسيل الى الاعتقاد بان نهر محدود الذي ورد ذكره في «معجم البلدان» لياقوت يسير في نفس الاتجاه الذي يسير به «نهر كرى سعده» حيث كان يأخذ هذا النهر اي نهر محدود من الضفة اليمنى لنهر الفرات وذلك في موضع يقع جنوب هيت ايضا * فكتب لياقوت في وصف هذا النهر بقوله: «المحدود اسم نهر بارض العراق قرب الانبار في جانب الديار الغربي منها امرت بخفره ام الخيزران ام الحلقاء (النصف الاخير من القرن الثامن الميلادي) وسمته المريان وكان وكيلها قد جعله اقساما وحد كل قسم ووكل بخفره قوما فسمى المحدود لذلك» *
 وكتب البلاذري في وصف هذا النهر بنفس الكلام * واذا سلمنا بما ذهب اليه لياقوت من ان النهر يقع بالقرب من الانبار وجب علينا التحري عن الموضع الذي كان يأخذ منه هذا النهر في المنطقة الواقعة شمال غربي القلوجة وليس في المنطقة الواقعة في جنوب هيت * والذي نراه هو ان نهر محدود هذا لم يكن الا احد الانهر التي فتحت في زمن العرب على ضفتي نهر الفرات، ولعله كان يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من امام نهر الملك حيث نجد آثاراً لسد قديم على نهر الفرات في ذلك المكان، ثم يتصل بنهر كرى سعده في القسم الذي يمتد بين كربلاء والكوفة * ويغلب على الظن بان نهر محدود هذا يقتضي أثر نهر العلقمي (٢٢٨) *

١٣ - مشاريع نهر دجلة

اما الانهار على نهر دجلة فكانت تنفرع في الضفتين من امام سد نمود الذي كان يرفع مستوى المياه في النهر (انظر ما تقدم عن هذا السد الفقرة ٧ الفصل التاسع) فتروي الاراضي الممتدة بين سامراء والكويت في الجانب الشرقي وبين سامراء وبغداد في الجانب الغربي، وأهم هذه الجداول النهروان في الجانب الشرقي والاسحاقي في الجانب الغربي *

١ - النهروان في العهد العربي الاسلامي

وكان هذا الجدول أعظم واوسع جدول عرفه العالم القديم ولعله أطول وأكبر الجداول التي انشئت في العالم حتى الان * فكان يسحب المياه من الجهة الشرقية لنهر دجلة وذلك في نقطة تقع جنوب تكريت في جوار قرية الدور فيروي الاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة، فيمتد مسافة حوالي مائة ميل شمال بغداد ومسافة مماثلة جنوبها حتى يصل الى جوار مدينة الكوت * وكان هذا الجدول قد حفر في الاصل من قبل البابليين ثم استغله الساسانيون، فحافظ العرب

(٢٢٨) انظر الدكتور احمد سوسة، «وادي الفرات»، ١٩٤٤، ج ١، ص ٣٠ وما بعدها.

عليه بعد فتحهم للعراق ونظموا مياهه ونسقوا فروعه والقري والمدن عليه فجعلوا من أراضي دجلة الشرقية مزارع واسعة وحدائق غناء ازدحم بها السكان وعمها الرخاء والرفاه . واذا لاحظنا ان عرض هذا الجدول يصل في بعض اقسامه الى حد المائة والعشرين مترا وعمقه في بعض الاقسام يبلغ اكثر من عشرة امتار اتضحت لنا اهمية هذا المشروع وعظمته فلا تعجب اذا قال ويلكوكس « ان النهروان كان يؤثر تأثيرا محسوسا في موسم الفيضان عندما كان يسحب اقصى استيعابه للمياه » . وقوله ايضا « انه لا يوجد جدول سواء اكان في مصر او في الهند يسكن ان يضاهي النهروان في حجمه ، فان اوسع جدول في مصر لا يتجاوز عرضه الستين مترا وعمقه العشرة امتار » .

وكان للنهروان ثلاثة مداخل رئيسية تنفرع من الضفة الشرقية لنهر دجلة في منطقة سامراء ، منها مدخلان يتفرعان من جنوبي سامراء، ويتفرع الثالث من شماليها فيؤلف المدخلان الجنوبيان المجري الرئيسي الاصيلي للنهروان وقد انشأ وفق الطريقة المتبعة في ذلك الوقت، أي على أساس انشاء مدخلين للجدول أحدهما خاص بموسم الفيضان يستعمل عند ارتفاع مستوى مياه النهر وهو الاسفل ، والثاني خاص بموسم الصيف (موسم شح المياه) وهو الاعلى . وعلى هذا الاساس أنشئ هذان المدخلان الواقعان في جنوبي سامراء، فالمدخل الاعلى ، اي الصيفي ، يعرف اليوم بأسم (نهر القائم) نسبة الى البرج القائم عنده المسمى ببرج القائم (٢٩) . وكان يعرف مجرى القائم بالقاطول وهو القاطول الذي أعاد الرشيد حفره وبنى عليه قصراً ليقيم فيه عندما يخرج للتنزه هناك، وقد سمي بأسم « نهر ابي الجند » . اما المدخل الاسفل وهو الذي يستعمل وقت الفيضان، فيسمى موقعه بالصنم ، ويرجع منشأ هذه التسمية الى عثور الاهلين على نصب كان عند فم هذا المجري

(٢٩) يتكون هذا البرج من بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه حوالي ستة امتار وارتفاعه عن الارض المجاورة ١٥ الى ٢٠ مترا ويقع على فم مجرى القائم تماما . ويظهر من الآثار المتبقية ان بناء البرج الداخلي بني بالجص والحصى الخشن، والأرجح ان وجه البناء كان مغطى بطبقة من الاجر عليها بعض الكتابة وان هذه الطبقة تخربت او قلعت منها مادة الاجر التي فيها لاستعمالها في ابنية سامراء . ويلاحظ في الجهة الشرقية من البرج آثار يستدل منها على انه كان في تلك الجهة سلم مدرج يصعد بواسطته الى قمة البرج .

ويعتقد البعض بأن البناء كان نصبا تذكاريا اقيم بمناسبة انشاء الجدول ، وهي الطريقة المتبعة منذ اقدم العصور حتى الان عند انشاء الجداول فيدون عادة على النصب اسم القائم بالمشروع وتاريخ انشائه وغير ذلك من الامور المتعلقة بالمشروع . وقد اختلف المحققون في امر تعيين تاريخ هذا البناء فالبعض ومن هؤلاء مس بيل ، يعتقد بأنه اقيم عندما انشئ المشروع ، ولذلك فهو أقدم من العصر العربي . والذي نراه هو ان البرج قديم جدا ، والأرجح ان البناء الاصيلي يرجع الى العصر الذي انشئ فيه النهروان وهو العهد الساساني ، ثم اعيد انشاؤه على عهد الرشيد عندما أعاد الرشيد حفر المجري نفسه ، ولعل المتوكل اضاف اليه بعض الزخارف او قام بتقويته . والدليل على هذا ان الحموي يذكر بأن القائم (بنية كانت قرب سامراء من ابنية المتوكل) كما ان ابن عبدالحق يؤيد ذلك بقوله ان القائم (بنية قرب سامراء من ابنية المتوكل) .

على شكل برج القائم * اما المدخل الشمالي الذي يأخذ من شمالي سامراء وهو ثالث المداخل فكان يحيط بسامراء من جهتها الشرقية ، وكان يعرف بأسم القاطول الأعلى الكسروي نسبة الى كسرى انوشروان الذي قام بحفره لارواء الاراضي الواقعة في جنوبي سامراء على ضفتي مجرى النهروان الرئيسي في القسم الاعلى منه ، وهي الاراضي المرتفعة الى مستوى مدخل مجرى النهروان الاسفل * وقد سمي هذا المجرى بالقاطول الكسروي لتمييزه عن القاطول الاسفل ، أي مجرى القائم الذي كان يسمى القاطول ايضا في العهد العربي *

وقد استغل الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١ م) هذا القسم من المجرى ، فأنشأ سداً عليه في نقطة تقع مقابل مدينة سامراء الحالية شرقاً وفتح نهراً يأخذ من الضفة اليسرى من امام السد وكان يعرف بالشاذروان ليروي الحدائق والبساتين والغابات التي أسست في السهل الواسع الواقع بين القاطول الكسروي ونهر دجلة جنوبي سامراء * وكان يعرف هذا النهر بأسم « نهر نيزك » وقد أحيطت هذه الحدائق والبساتين والغابات بسور من كل اطرافها واسس داخلها حير للوحوش وهو ما نسميه « حديقة الحيوانات » * ويبلغ مجموع طول هذا السور حوالي ثلاثين كيلو مترا ويضم داخله مساحة تبلغ حوالي (٥٣) كيلو مترا مربعا ، أي حوالي ٢٢ ألف مشارة عراقية * وكان نهر نيزك يخترق الحير من الوسط وبعد ان يسقي حدائق الحير ينتهي عند البركة الجعفرية والقصر المجاور لها ، اما مياه البركة فتفرغ في نهر دجلة حسب الحاجة بوساطة مجاري تحت الارض * وقد وصف البحري في قصائده الحير والقاطول ونهر نيزك والوحوش التي ذكر ان عددها الفأ وحش ، كما وصف البركة الجعفرية والقصر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها « يامن رأى البركة الحسناء » وصفا مستفيضاً (٣٠) *

ومن جملة الاعمال التي كان يتطلبها مشروع النهروان حجز مياه النهرين «العظيم» و «ديالى» وهما النهران اللذان ينحدران من المنطقة الجبلية شرقي العراق فيصبان في الضفة الشرقية من دجلة ، وذلك ليتسنى للنهروان اجتيازهما في طريقه الذي يمتد بموازاة نهر دجلة شرقاً * وقد عالج الاقدمون ذلك بإنشاء سدين ضخمين من الاحجار على المجريين المذكورين لتحويل مياههما عن اتجاهيهما الاصيلين ، وكان ذلك في الموقع الذي يقطع فيه كل منهما سلسلة جبال حمرين * ولا تزال آثار هذين السدين ماثلة للعيان يمكن مشاهدتهما في موقعي اختراقهما سلسلة جبال حمرين المذكورة * وقد حولت مياه فيضان العظيم من امام السد الذي اقيم على النهر عند جبل حمرين الى بحيرة الشارع جنوب شرقي سامراء فأُنشئ فيها خزانات يمول جدول النهروان بالمياه في موسم الفيضانات (موسم شح المياه) * اما مياه فيضان نهر ديالى فقد حولت من امام السد الذي اقيم على النهر عند جبل حمرين الى بحيرة الشويجة شرقي مدينة الكوت عن طريق مجرى جدول الروز الحالي

(٣٠) انظر «رى سامراء في عهد الخلافة العباسية» للدكتور احمد سوسة ، ٢ : ٢٥٨ - ٢١٣ *

ومنها الى نهر دجلة في جوار الكوت • واما المياه الصيفية فقد حولت الى جداول الري المتفرعة من جانبي النهرين المذكورين • والارجح انه كان في كل من السدين فتحات يحول منها بعض المياه الى النهروان عند الحاجة •

وكان ديوالى الحالي يعرف في زمن العرب بأسم (نهر تامرا) أما تسمية نهر ديوالى فكانت تطلق على جدول بهذا الاسم يتفرع من الجانب الغربي من النهروان وينتهي الى قرب نهر دجلة جنوب بغداد • الا انه بعد انهيار سد ديوالى في جبل حمرين واقطاع المياه عن مجرى النهروان عاد النهر يسيل في مجراه القديم الذي كان يسلكه قبل انشاء مشروع النهروان الكبير الذي يستمد مياهه من القواطيل قرب سامراء مخترقا مجرى النهروان في طريقه الى دجلة وصار يعرف بأسم نهر ديوالى نسبة الى فرع ديوالى الذي كان يأخذ من النهروان وينتهي الى نهر دجلة جنوب بغداد • وكذلك عاد نهر العظيم بعد انهيار السد الى مجراه الاصلي مخترقا جدول النهروان المندرس منحدرًا صوب نهر دجلة حتى مصبه الحالي في جنوب سامراء • وتشاهد اليوم اثار سدين ضخمين على نهر العظيم في موقع اجتيازه سلسلة جبل حمرين احدهما في مضيق جبل حمرين والثاني على بعد بضعة كيلو مترات جنوبا مما يدل على ان احد السدين كان قد انهار فأُنشئ سد آخر ليحل محله • ولعل سبب انهيار السد الاصلي يرجع الى عدم صلاحية التربة التي انشئ عليها السد • والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : أي السدين كان قد انشئ أول مرة أهو الاعلى ام الاسفل ؟ فالارجح ان يكون قد انشئ السد الاخير فوق السد المنهار وبذلك يكون السد الاصلي هو السد الاسفل •

وفي العهد الاخير أنشئ سد بنائي على نهر ديوالى عند ملتقاه بالنهروان لتحويل مياه نهر ديوالى الى النهروان في قسمه الاسفل واستمرار الزراعة في ذلك القسم • وكان يعرف هذا السد بأسم «سد السهلية» الا انه كان مهددا بفيضانات النهرسنوياً فكان يرهم بين الحين والاخر كلما حدثت تخريبات فيه • وقد جرت محاولة لاعادة انشاء هذا السد على عهد مدحت باشا (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨ م) الا ان محاولته هذه فشلت لان السد لم يقو على الصمود امام فيضان ديوالى الشديد • وقد اقترح ويلكوكس في جملة مشاريعه التي قدمها بعد ذلك اعادة انشاء هذا السد لاحياء القسم الاسفل من النهروان على ان تحول مياه فيضان ديوالى الى المجرى القديم الذي كان يجري في اتجاه مجرى الروز الحالي الى نهر دجلة جنوب الكوت •

يتضح مما تقدم ان موضوع النهروان موضوع معقد للغاية ويتعذر تفهم تطوراته دون الوقوف على تفاصيل تأريخ هذه المنطقة بأسرها • لذلك فقد ذهب بعض الباحثين والمؤرخين الى ان النهروان كان يعبر فوق نهر ديوالى استنادا الى ان آثار مجرى النهروان القديم لا تزال تشاهد وهي تتقاطع مع نهر ديوالى الحالي في نقطة غير بعيدة من جنوب بعقوبة • ومما ذكره المرحوم العميد الركن البحاثة السيد طه الهاشمي في كتابه « مفصل جغرافية العراق » ان النهروان كان « يقطع ديوالى في جوار بعقوبة فوق جسر من حجر » (ص ٢٥٢) • وهذا مالا يسعنا تقبله لاسباب فنية واضحة وهي

ان تصريف نهر ديبالى يصل في بعض الفيضانات الى حوالي (٣٥٠٠) متر مكعب في الثانية كما حدث فعلا في فيضان سنة ١٩٤٦ ، وليس من السهل حتى في عصرنا هذا اقامة مثل هذا الجسر لامرار مثل هذا التصريف الكبير فوqe . وفضلا عن ذلك فلو كان قد انشىء مثل هذا الجسر الضخم الذي يجب ان يستوعب كل التصريف المذكور لما اغفل ذكره المؤرخون ولكان بقي له بعض الاثر في أي حال من الاحوال .

واما فيما يختص بتاريخ انشاء النهر وان فيكاد يكون الاجماع على انه أنشىء أو جدد على عهد الساسانيين . ويذهب بعض المؤرخين الى ان انشاء النهر وان كان مقرونا بدوافع عسكرية تستهدف وقاية البلاد من غزوات الرومان . فيقول هؤلاء بأن الفرس قاموا بأنشاء هذا المشروع بعد ان شعروا بان القطر العراقي ، الذي كان في حوزتهم ، أصبح مهددا من جهة شرقي دجلة حيث صار الرومان يسلكون طريق نصيبين او سنجار او ارمينية في غزواتهم فينزلون سهوله عن طريق المنطقة الآشورية شرقي دجلة في المواسم الملائمة حتى باب طيسفون . وقد شعر الفرس بان بقاء هذا السهل بالشكل الذي كان عليه يهدد كيان دولتهم وانهييار امپراطوريتهم فقاموا بأنشاء النهر وان كمشروع دفاعي في الدرجة الاولى . اما نواتجه الزراعية فكانت في يادى الامر ثانوية ولكنها اصبحت الهدف بعد ان زال خطر الغزو على عهد العرب . وغير معلوم بالضبط في أي من عصور عواهل الفرس أنشىء مشروع النهر وان ، على ان هناك من يعتقد بأنه كان يديء به على عهد العواهل الاول والاربع انه تم انشاؤه في زمن سابور الثاني الذي تمتع عهد حكمه الطويل بفترة سلم مكنته من انجاز هذه المشاريع دون اعتراض او حائل .

اما تسمية النهر وان فهناك ما يدل على انها قديمة للغاية فقد جاء ذكر نهر بهذا الاسم في اسطوانة اكتشفت في خرائب خفاجي الواقعة شرقي نهر ديبالى بين بعقوبة وبغداد وذلك قبل ان ينشأ النهر وان الموسع الذي يأخذ من قرب سامراء . والظاهر ان هذه الاسطوانة كتبت على عهد شمسو ايلونا بن حمورابي وخليفته الذي ورد اسمه مقرونا باسم الموقع (دور شمسو ايلونا) المسمى (خفاجي) الان ، وهي تعود الى ما قبل ٩٠٠ ق.م . على الاقل ، والارجح ان هذا النهر كان يتمون من نهر ديبالى في ذلك العصر واصبح بعد انشاء مشروع النهر وان الواسع الذي يأخذ من دجلة قرب سامراء جزءا من ذلك المشروع ، اي اصبح يكون القسم الاسفل للنهر وان (٢١) .

شرحنا فيما تقدم تفاصيل مشروع سد نمود القديم بما في ذلك مشروع النهر وان في منطقة سامراء (انظر الفقرة ٧ من الفصل التاسع) وهناك ما يدلنا على ان العرب استغلوا منطقة النهر وان كلها ، وهي المنطقة التي تمتد من الصدر قرب سامراء حتى الذنائب قرب

(٢١) يجد القارىء بحثا مفصلا عن تاريخ النهر وان في كتاب « ري سامراء » للدكتور احمد سوسة ويقع في جزئين .

الكوت ، وقد بلغ هذا الاستثمار ذروته في العهد العباسي الزاهر . ففي هذا العهد كان « القاطول الاعلى الكسروي » عامرا تجري فيه المياه بصورة دائمة فيسقي الاراضي الزراعية المرتفعة التي تقع بينه وبين مجرى دجلة القديم ، كما كان « القاطول الاسفل » (نهر القائم) بصدرية الشتوي والصيفي - صدرا القائم والضم - عامرين ايضا تجري فيهما المياه طوال السنة فتروي كل المنطقة التي تمتد من جنوبي ملتقى القاطول الاعلى بالقاطول الاسفل حتى ذئاب النهروان قرب مدينة الكوت الحالية . وكان في الوقت نفسه « سد العظيم » في جبل حميرين يؤمن تحويل مياه نهر العظيم الى الانهر الفرعية القائمة على الجانبين والى بحيرة الشارع ، كما كان « سد ديالى » يحول مياه نهر ديالى الى الجداول الفرعية والى منخفضات الروز وعلى هذا كانت كل المنطقة الزراعية التي تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة بين جبل حميرين ونهر دجلة والتي تمتد من سامراء حتى الكوت مزدهرة ببساتينها ومزارعها وقراها ومدنها فتستمد مياهها من انهر النهروان وديالى والعظيم . وكانت هذه المنطقة مقسمة الى ثلاثة كور ، الكورة الاولى تشتمل على المنطقة التي تقع بين النهروان وضفة دجلة الشرقية والتي تمتد من سامراء حتى المدائن تضاف اليها اراضي العظيم الواقعة على الجانب الشرقي من النهروان وتسمى « استان شاذ هرمز » . (يلاحظ من ذلك ان العرب احتفظوا بالاسماء الفارسية القديمة) ، وهذه تقسم الى سبعة طساسيج ، ثم الكورة الثانية التي تشتمل على المنطقة الواقعة على جانبي نهر ديالى شمالي مجرى النهروان ومن ضمنها اراضي مندلي الحالية وتسمى « استان شاذ قباد » ، وهذه تقسم الى ثمانية طساسيج . اما الكورة الثالثة فتشتمل على منطقة النهروان بين المدائن والكوت ومن ضمنها اراضي بكرة وزرباطية الحالية ، وقد سماها ابن خرداذبة « استان بازيجان خسرو » على حين ان قدامة اطلق عليها اسم « استان ارندين كرد » مع ان الاثنين قد اتفقا في تدوين عدد طساسيج هذه الكورة وهي خمسة كما انها اتفقا في نقل اسماء الطساسيج الخمسة هذه .

ويلاحظ ان التقسيمات الزراعية التي كان يعمل بها في ذلك الزمن تتألف من الكورة او الاستان (والكورة والاستان معنى واحد) وهي اكبر وحدة زراعية في القطر، فتقسم الكورة الى رساتيق (جمع رساتاق) وينقسم الرساتاق الى طساسيج (جمع طسوج) وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى . والكورة اسم فارسي وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان، وهي الصقع الذي يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قسبة او مدينة او نهر يجمع اسمها . ويعني بالرساتاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن فهو بمنزلة السواد وهو اخص من الكورة او الاستان . اما الطسوج فهو لفظة فارسية ايضا وهو اقل من الرساتاق وقد قسم سواد العراق على ستين طسوجا اضيف كل طسوج الى اسم (راجع مقدمة معجم ياقوت الحموي) .

مدينة بغداد الشرقية وانهارها

يرجع تاريخ تأسيس مدينة بغداد الشرقية الى عهد المنصور حين اتخذ الضفة دجلة الشرقية قبالة

مدينته المدورة التي على الجانب الغربي من دجلة موضعا يعسكر فيه الجيش ، وكان قد اعد لابنه قصرا هنا ايضا بمناسبة انتصاره ورجوعه من خراسان على راس الجيش، وقد اقيم جامع بالقرب من القصر ثم انشئت البساتين حوالي القصر وحفر نهر خاص لاروائها وقد سميت هذه المحلة بعد ان توسعت وانشئت فيها القطائع والدور باسم « الرصافة » وكانت تعرف باسم « عسكر » المهدي « في اول الامر . وامتد العمران في جهة « الرصافة » هذه حتى صار يعادل عمران مدينة المنصور التي على الجانب الغربي وقد ساواها في المساحة بعد ذلك . ويذكر العقوبي باسمها القطائع المختلفة التي اقطعها المهدي لرجاله من الاراضي المحيطة بالرصافة وكانت هذه الاراضي في الشمال الشرقي وفي الجنوب وقد اصبحت اخيرا « محلة الشماسية » و « محلة المخرم » . (حول مدينة بغداد الغربية وانهارها انظر الفقرة ١٢ أ نهر عيسى ومدينة بغداد الغربية مدينة المنصور المدورة) .

وكان هناك فرعان رئيسيان من فروع النهر وان يغذيان شبكة الانهر التي كانت تتغلغل في قلب مدينة بغداد الشرقية ضمن حدود الطسوجين، « نهر بوق » و « كلواذي ونهر بين »، اولهما من الشمال يعرف باسم « نهر الخالص » ، والاخر من الجنوب يسمى « نهر بين » (انظر مرسم انهار مدينة بغداد الشرقية) . وكان « نهر الخالص » يتفرع من الجانب الايمن للنهر وان في نقطة تقع في جوار قرية « باجسرى »، فيسير في الاتجاه الجنوبي بين النهر وان ودجلة ثم ينصب في دجلة شمالي مدينة بغداد الشرقية فوق قرية « البردان »^(١) بقليل ، وعلى هذا يمكن تعيين اتجاهه في نفس الاتجاه الذي يسير فيه « نهر الجاث » القديم و « نهر المشيرية » العالي الواقع في ذئاب جدول الخالص الحديث . اما « نهر بين » فكان يتفرع من فوق « مدينة النهر وان » بقليل وبعد ان تتفرع منه عدة فروع وتسقي الضياع الواقعة عليها يصب ماءه في دجلة عند « كلواذي » الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوبي مدينة بغداد بقليل . وهكذا كانت جميع انهار بغداد الشرقية تتفرع من هذين الفرعين الرئيسين « نهر الخالص » و « نهر بين » فتؤلف شبكة من الجداول فيها .

وقد وصف ابن سراييون « نهر الخالص » فقال انه كبير تجري فيه السفن فيمر بين ضياع وقرى وبعد ان تتفرع منه انهار كثيرة يصب في دجلة اسفل الراشدية بفرسخين (حوالي عشرة كيلو مترات) شرقي دجلة . وان اهم الفروع التي كانت تتشعب منه هو الفرع المسمى « نهر الفضل »، وهذا يتفرع من ضفته اليسرى فيسير جنوبا حتى يصل الى دجلة فيصب فيها عند باب الشماسية في القسم الاعلى من بغداد الشرقية .

وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل عند باب الشماسية فرع يسمى « نهر المهدي » فيدخل هذا الفرع المدينة في الشارع المعروف باسم « شارع المهدي » متجها نحو الجنوب الشرقي ، وبعد ان يمر بقنطرة البردان ودار الرومين وسويقة نصر بن ملك يدخل الرصافة ويمر في المسجد

الجامع الى بستان حفص ويصب في بركة في جوف قصر الرصافة . وقد اشار يعقوبي الى نهر المهدي هذا قال : « فاخطط المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في الرصافة ، وحضر نهرا ياخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي » .

وكان يتفرع من « نهر الفضل » ايضا نهر يقال له « نهر الجعفري » او « نهر الجعفرية » ، وهذا يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل ايضا من نقطة تقع شمالي ماخذ نهر المهدي ، وبعد ان يمر بقرى وضياح ينتهي الى الاراضي التي في شمالي مدينة بغداد . وكان يحمل من الضفة اليمنى لنهر الجعفرية نهر يسمى « نهر السور » فيسير غربا مع سور بغداد وبعد ان يمر بباب خراسان وباب البردان يصب في نهر الفضل الذي يصب بباب الشماسية .

وكان يحمل من الضفة اليسرى لنهر المهدي فرع اوله في سوق نصر يمر في وسط شارع باب خراسان الى ان يصب في نهر السور بباب خراسان (انظر المرسوم رقم ٣٩٩هـ مدينة بغداد الشرقية) .

اما « نهر بين » فان اهم فروعه هو الفرع المعروف باسم « نهر موسى » ، وكان هذا الفرع يتشعب من الضفة اليمنى لـ « نهر بين » في نقطة تقع شرقي قصر المعتضد المعروف بـ « الثريا » فيسير غربا حتى يصل الى « قصر الثريا » فيدخله ويدور فيه ويخرج منه ويصير الى موضع يقال له « مقسم الماء » فينقسم هناك الى ثلاثة انهار ، اولها ، الفرع الشمالي الغربي ، وهو اطولها ، يبقى محتفظا باسم « نهر موسى » فتشعب فروعه الكثيرة في « محلة المخرم » فيخترقها مع فروعه . وبعد ان يدور حول هذه المنطقة يدخل « بستان الزاهر » ويصب في دجلة اسفل البستان المذكور بقليل . ويمر « نهر موسى » هذا بـ « سوق الدواب » وبـ « دار البانوجة » وبـ « قصر المعتصم » ، كما انه يغذي الاحواض الثلاثة التي في هذه المنطقة ، وهي « الانصار » و « هيلانة » و « داود » . ويسمى الفرع الثاني الذي يتفرع من « المقسم » وهو الفرع الاوسط باسم « نهر المولى » ، وهذا يسير غربا الى داخل المدينة ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بـ « الفردوس » ويدور حوله حتى يصب في دجلة مع القصر . ويمر النهر الثالث من « المقسم » الى باب العامة فيسير جنوبا ثم يدخل الى القصر المعروف بـ « الحسنى » فيدور فيه وينتهي الى دجلة تحت قصر المكتفي بالله المعروف بـ « قصر التاج » .

وكان يتفرع من « نهر بين » عدا « نهر موسى » فرع اخر يسمى « نهر علي » ، وهذا يتفرع من الضفة اليمنى لـ « نهر بين » في نقطة تقع فوق ماخذ « نهر موسى » بقليل فيمر بقرية الاثلة وبعد ان يسقي « طسوج نهر بوق » و « رستاق الافروطر » يصب في احد فروع الخالص ، والارجح انه يصب في فرع الجعفري الذي مر ذكره .

يتضح مما تقدم ان منطقة مدينة بغداد الشرقية كانت تروى من النهرين الرئيسيين — « نهر الخالص » و « نهر بين » المتفرعين من الضفة اليمنى لنهر النهروان الكبير ، فالمواضع



المرسم رقم (٢٩) - انهر مدينة بغداد الشرقية

الشمالية كانت تسقى من فروع «نهر المهدي» و «الجعفري» و «السور» المتشعبة من «نهر الفضل» الذي هو احد فروع «نهر الخالص»، اما المواضع الجنوبية فكانت تسقى من فروع «نهر موسى» الذي هو احد فروع «نهر بين»، وهي الفروع الثلاثة المتشعبة من «مقسم الماء».

قصور الخلفاء في مدينة بغداد الشرقية

اما العمارة المهمة التي انشئت في الجهة الشرقية لمدينة بغداد فيرجع معظمها الى العهد الاخير الذي يلي عهد عودة الخلفاء من سامراء، ومن اهم القصور التي اشتهرت في هذا العهد «القصر الحسني» و «قصر الثريا» و «قصر الفردوس» و «قصر التاج» . وكان «القصر الحسني» قد اُنشئ في الاصل من قبل جعفر البرمكي جنوبي الرصافة واصبح في الاخير موضع دار الخلافة بعد انتقال دار الخلافة الى الجانب الشرقي من المدينة . وقد ذكر ياقوت ان القصر كان من احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه فاقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالة وحيرا لجميع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وبعد ان تولى المعتمد صار هذا القصر من احب البقاع اليه كان يتردد فيما بينه وبين سر من رأى فيقيم هنا تارة وهناك تارة اخرى حتى توفي

فيه سنة ٢٧٩ هـ وحمل الى سامراء فدفن فيها ، ثم استولاه المعتضد بالله فاستضاف الى « القصر الحسيني » ماجاوره فوسعه وكبره وادار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا واقطع من البرية قطعة فعملها ميدانا عوضا من الميدان الذي ادخله في العمارة وابتنى على نحو ميلين منه في جهة الشرق الموضع الذي على « نهر موسى » والمعروف بـ « الثريا » ووصل بناء الثريا بالقصر الحسيني وابتنى تحت القصر آزاجا من القصر الى الثريا تمشي جواريه فيها وحرمه وسراريه وما زال باقيا الى الغرق الاول الذي سار ببغداد فعفى اثره وكان ذلك في سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) حين انفجرت المسناة التي تحت « نهر القورج » وغمرت المياه ببغداد الشرقية جميعها ، وقد ذكر المسعودي المؤرخ المعاصر : ان المعتضد اتفق على قصره المعروف بالثريا اربع مائة الف دينار وكانت مساحة ارضه ثلاثة فراسخ وكان الازج الذي طوله ميلان المار ذكره معقودا يمر تحت الدور والشوارع التي اقيمت فيما بعد خارج قصور الخلفاء .

وقد شيد المعتضد « الفردوس » في جوار « القصر الحسيني » في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر المعلى في دجلة ، وكان في بساتين هذا القصر بحيرة ياتيها الماء من فرع صغير لـ (نهر موسى) عند (المقسم) قرب (باب المخرم) . وقد ذكر ابن حمدون النديم ان المعتضد غرم على عمارة البحيرة ستين الف دينار وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته دريرة(*) . وزيادة على قصري (الفردوس) و (الثريا) وضع المعتضد اساسات (قصر التاج) المشهور في موضع يقع على نهر دجلة بالقرب من (القصر الحسيني) وحين تم بناؤه وسعه الخلفاء المتعاقبون واصبح اهم مركز رسمي للخلفاء .

ب - نهر الاسحافي

لما انشأ المعتصم مدينة « سر من رأى » في منطقة سامراء الحالية على الضفة الشرقية من نهر دجلة واتسعت ابنتها اتساعها السريع كانت مياه الشرب تحمل من نهر دجلة الى هذه المدينة على البقال وعلى الابل ، ونظرا لان الاراضي التي تقع فيها المدينة مرتفعة بالنسبة الى مستوى النهر فلم يكن هناك مجال لانشاء البساتين والمزارع بصورة واسعة حول المدينة ، لان الوسائط لرفع المياه لم تكن متوفرة بمقياس واسع في ذلك الزمن ، ولما كانت الاراضي القائمة على الضفة الغربية من نهر دجلة منخفضة بالنسبة الى مستوى اراضي الضفة الشرقية التي تقع فيها مدينة « سر من رأى » فقد انتقل بعض السكان الى الجانب الغربي من دجلة وحفروا هناك جداول سيحية انشئت عليها الجنائن والبساتين والمزارع والقرى ، و كانت هذه الجداول تنفرع من نهر الاسحافي الذي

(*) كان يقع هذا القصر في القسم الشمالي من محلة المخرم على ضفة « نهر موسى » جنوبي « باب خراسان » وقد اقام المعتصم في هذا القصر من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢١ هـ ، اي قبل انتقاله من بغداد الى سامراء والظاهر انه تهدم بعد هذا التاريخ بمدة قصيرة بدليل انه لم يرد له ذكر عند اي مؤرخ جاء بعد سراييون .

حفره المعتصم لأرواء الاراضي الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة ارواءاً سيحياً . ونهر الاسحاقي هذا يستمد مياهه من نهر دجلة في هقلة تقع جنوب قرية تكريت بقليل فيجري من امام مدينة « سر من رأى » موازياً لنهر دجلة جنوباً لقد ثبت من تحقيقاتنا ان منشأ هذا النهر يرجع الى عصور سحيقة في التاريخ وانه كان بالاصل نهراً واسعاً يتفرع من الضفة اليمنى من نهر دجلة في نقطة تقع بجوار تكريت فيمتد الى اقصى الجنوب حتى ينتهي الى منخفض (عرقوف) وكان يروي القسم الاعظم من اراضي الجزيرة التي تمتد بين القرات ودجلة ابتداءً من سامراء حتى منخفض عرقوف الواقع غربي بغداد ، على ان المشروع اهل فاندرس وبقي متروكاً مدة من الزمن حتى اذا ماجاء العهد العباسي واقام بنو العباس سامراء عاصمةً لملكهم قام المعتصم باحياء القسم الاعلى منه ، وهو القسم الذي يمتد بين تكريت والحد الجنوبي لمدينة « سر من رأى » لذلك فقد يصح لنا ان نقول بانه مر على مشروع الاسحاقي دوران، الاول هو الدور القديم الذي كان فيه نهر الاسحاقي مشروع ري واسع يمتد في اراضي الجزيرة من تكريت حتى عرقوف ، والثاني هو الدور العباسي ، الذي اعيد فيه انشاء القسم الاعلى من النهر لاستغلاله في احداث البساتين والمزارع مقابل مدينة « سر من رأى » في جهة دجلة الغربية ، ولا شك في ان تسمية « الاسحاقي » ترجع الى الدور الثاني ، أي الدور العباسي ، وقد تولى أعمال هذا المشروع اسحاق بن ابراهيم فسمي باسمه ، وقد ورد لهذا النهر ذكر في جغرافية علي بن سعيد المغربي ، قال : « وفي جنوب تكريت وشرقيها النهر الاسحاقي حفره في ايام المتوكل اسحق بن ابراهيم صاحب شرطته . وهو أول حد سواد العراق ومنه تبدأ الاشجار وخروج مياه دجلة التي تسيح في ارض العراق » . والمعروف انه في عهد المعتصم استحدث هذا النهر ويلاحظ ان « وادي اسحق بن ابراهيم » الواقع في الجانب الشرقي سمي باسمه أيضاً لوجود قطيعته بالقرب منه .

وكان نهر الاسحاقي محور العمران الذي أسس في سامراء العباسية على الضفة الغربية من نهر دجلة فوصف اليعقوبي ذلك في كتابه « البلدان » قال ما نصه :

« واتسع الناس في البناء بسر من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنو المنازل الواسعة ، الا ان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الروايا على البغال وعلى الابل لان آبارهم بعيدة الوشاء ثم هي مالحة غير سائفة فليس لها اتساع في الماء ولكن دجلة قريبة والروايا كثيرة . ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء فسي الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب « سر من رأى » عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هناك العمارات والبساتين والاجرة وحفر الانهار من دجلة وصير الى كل قائدة عمارة فاحية من النواحي . وحمل النخيل من بغداد والبصرة وسائر السواد وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه المصار . . . وصلح النخل ونبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الثواكه وحسن الريضان والبقول وزرع الناس اصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة الوف

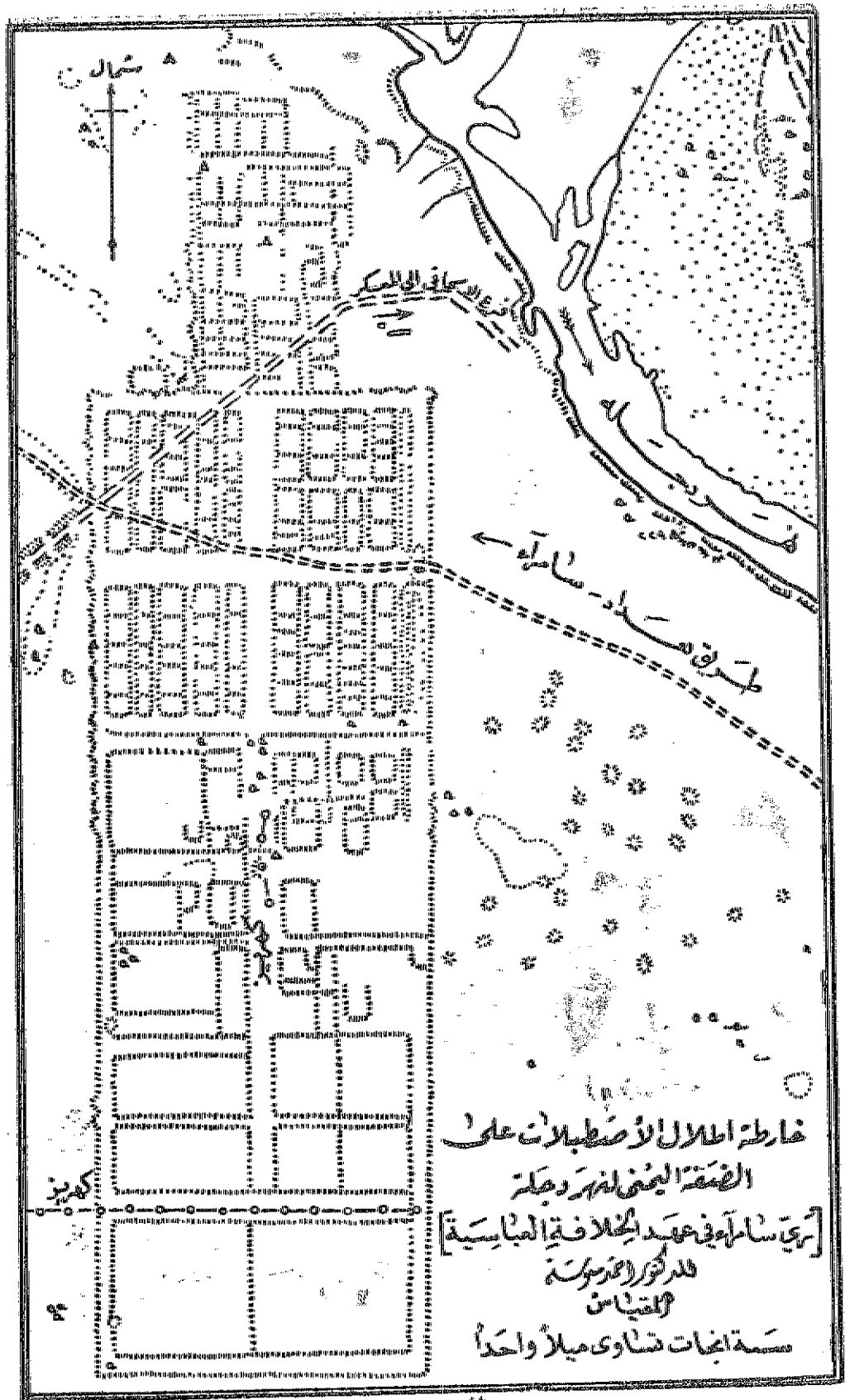
السنين فزكا كل ما غرس بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقبي وما عليه والياتاخي
والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيف والعربيات المحدثنة وهي خمس
قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والاجنسة والبساتين وخراج الزرع أربع مائة الف دينار في
السنة » . وقد أورد ابن المعتز في ديوان شعره ذكر الجسر والقرى الخمس المشار إليها في وصف
اليقوبي قال :

سقى الاله سر من رأى القطر والكسرخ والخمس والقرى والجسر

ومن أهم العمارات على نهر الاسحاقبي التي لاتزال اثارها شاخصة، «قصر الحويصلات» الواقع
على الضفة اليسرى من النهر و « قصر العاشق » على ضفته اليمنى وقبة الصليبية على ضفته اليمنى
ايضا .

وكان نهر الاسحاقبي يفضي الى معسكر الاصطبلات وهو المعسكر الذي أقيم في الجانب
الغربي من « سر من رأى » على بعد حوالي عشرة كيلو مترات من جنوب سامراء الحديثة . ويحيط
بهذا المعسكر سور خارجي طويل يبدأ في الشمال من حافة نهر دجلة الغربية فيمتد الى مسافة ستة
وعشرين كيلو مترا غربي المعسكر ، ثم ينتهي جنوبا الى حافة نهر دجلة الغربية ايضا وكان هذا السور
محصنا بعدة ابراج أنشئت في المنعطفات وفي المداخل الرئيسية للمعسكر . اما مساحة أرض
المعسكر بما فيها مساحة الشكنات التي داخل السور فتبلغ ثمانية وخمسين كيلومترا مربعا
(حوالي ٢٤ الف مشاركة) .

وكان نهر الاسحاقبي عدا احاطته سور معسكر الاصطبلات بحاجز مائي ، يمون المعسكر
بالمياه ولتحقيق هذا الغرض كانت هناك ثلاثة فروع رئيسية تتفرع من ضفته اليسرى فتخترق
المعسكر ثم يصب بعضها في نهر دجلة والبعض الاخر في نهر دجيل الواقع في الجنوب .
ومما يلقت النظر ان قسما كبيرا من أرض المعسكر كان يستغل لاحداث مراعي اصطناعية
لجياد الجيش العباسي التي كان يقدر عددها ب ١٦ الف حصان . واما القسم المبني ضمن السور
الداخلي فكان معدا لسكنى الجنود والضباط ، ولاتزال آثاره تعرف اليوم بأسم الاصطبلات .
وكان بعض أرض المعسكر وخاصة القسم الجنوبي الشرقي الذي يشكل اوسع بقعة داخل المعسكر
ينمر بالمياه من فروع نهر الاسحاقبي المار ذكرها فيكون بذلك المرعى المطلوب . وكانت هذه
الطريقة متبعة في القطر العراقي منذ اقدم الازمنة، وقد استمر استعمالها في المقاطعات الواسعة حتى
شرع في تنظيم الري وسن قانون الري الذي يمنع احداث مثل هذه المراعي في الاراضي الزراعية لما
فيها من اسراف بالمياه هذا عدا خطر تراكم الاملاح في الارض وضياع خصوبتها . واذا تصورنا وضع
الجياد وهي ترعى رعي الاغنام في داخل سور المعسكر اتضح لنا ضرورة تحقيق مشروع هذا
النهر لتأمين مياه الشرب الى تلك الجياد فلا يضطر الجنود الى نقل مياه الشرب اليها من نهر دجلة .
(انظر الرسم رقم ٤٠) .



المرقّم رقم ٤٠

خارطة اطلال الاصطبلات على الضفة اليمنى لنهر دجلة

و مما يجدر ذكره في هذا الصدد هو ان مشروع الاسحاقى يجري احياؤه الان ، ويشتمل هذا المشروع الجديد على جدول واسع يأخذ من مقدم سدة سامراء الحديثة ويمتد بمحاذاة جدول الاسحاقى القديم وذلك لسقي الاراضي التي كان يرويها هذا الجدول قديما وهي تقع جنوب سامراء وتمتد من بلد في الشمال حتى ضواحي الكاظمية في الجنوب . وتقدر مساحة هذه الاراضي بـ ٣٣٠ ألف مشاركة اما كلفة هذا المشروع فتقدر بأكثر من سبعة ملايين دينار . وقد سبق ان تم بناء ناظم في صدر هذا الجدول في جوار سدة سامراء كملحق لها وسوف تستخدم هذه السدة في تنظيم ميساه الجدول من مصدره وتكون سدة سامراء جزءا من مشروع التثرائ المعروف ، وقد سبق ان بنيت لرفع مستوى مياه نهر دجلة في موسم الفيضان وتحويلها الى منخفض التثرائ وذلك لدرء اخطار الفيضان عن مدينة بغداد والمزارع والقرى الواقعة على نهر دجلة جنوبا . وقد صمم مشروع جدول الاسحاقى الجديد على اساس امتداد الجدول شرقا فيعبر نهري دجلة وديالى بواسطة سيفونين ينشآن تحت مجرى النهرين المذكورين لارواء اراضي النهروان السفلى الواقعة على الضفة الشرقية من نهر ديالى وتقدر مساحة هذه الاراضي بأكثر من نصف مليون مشاركة .

١٤ - اراضي السواد في العصر العباسي

والذي لا بد لنا من الاشارة اليه هو ان الوصف الذي المننا اليه عن مشروعات الري القديمة في مختلف ادوار تاريخ العراق يؤدي بنا الى نتيجة واحدة ، وهي ان منشآت الري العاطلة التي نشاهد آثارها منبثة في مختلف أنحاء العراق لم تكن كلها استعملت في وقت واحد ، لذلك فان تقدير مساحات الاراضي التي كانت تزرع في اي وقت من الاوقات لا يعدو الحدس والتخمين . يقول السير ويليام ويلكوكس في ذلك : « يجب ان لا يغرب عن البال انه لم يحدث قط ان كانت جميع اراضي العراق منتظمة الري في اي عصر من العصور . فقد كان مركز الري الرئيسي بادىء الامر في المناطق السفلى من الرافدين بين نهر واورالكلدان ، ثم انتقل منها الى البقعة الكائنة بين سبارة وبابل ، وفي زمن الفرس أصبح مركز الري في طيسفون . وكانت كل من البصرة وواسط والكوفة في جنوب الدلتا من اهم عواصم العراق ، وبعدها انتقل مركز العمران الى بغداد في زمن الخلفاء » . ويضيف مدير الري العام السابق المستر آلارد الى ماتقدم قائلاً : « ويجب ان نتذكر دائما بان اعمال الري القديمة التي نشاهدها اليوم يتصل تأريخها بعدة آلاف من السنين . هذا وان الغرين كثيرا ما يطغى على الجدول غير المنتظم فيطمره ، لذلك لم تعمر الجداول القديمة طويلا ، وتوجد في بعض الاحيان بقايا عدد من الجداول ، كل منها ممتد بجانب الآخر وكلها عاطلة باستثناء واحد منها الامر الذي يدل على ان عددا محدودا فقط من مجموع هذه الجداول كان عامرا في عصر من العصور » .

اما ما يتعلق بأراضي العراق الزراعية فيقسم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين الى منطقتين، المنطقة الجنوبية ويسمونها « العراق » والمنطقة الشمالية ويسمونها « الجزيرة » . الا ان هذا

التقسيم جاء بشكل عام لا يتضمن معلومات كافية تمكننا من تعيين حدود كل منهما بدقة تامة . ان مدلول العراق غير واضح تماما ولكنه يكاد يكون مرادفا لمصطلح السواد ، وهذا يشير في الحقيقة الى الاراضي الغرينية « اراضي الدلتا » التي تكون بصورة عامة من اراضي العراق الزراعية التي تعتمد على الري . ويمكن تحديد منطقة السواد استنادا الى أوصاف الجغرافيين العرب بأنها تمتد من العث وحربي شمالا الى الخليج العربي جنوبا ، ومن حلوان شرقا الى العذيب بجوار القادسية غربا . اما الجزيرة فينهم من وصف مؤلف (حدود العالم) (ص ١٤٠) ان الجزيرة محوطة بالدجلة والفرات وانها لذلك تدعى « الجزيرة » . وهذا الوصف جاء بشكل عام أيضا لانه توجد الى شرق نهر دجلة والى غرب الفرات مدن وقرى تعتبر من الجزيرة وان كانت وراء النهرين ، فيحدد الاصطخري (ص ٧١) وابن حوقل (ص ٢٠٨-٢٠٩) حدود الجزيرة بأنها تمتد من الجنوب من خط يمر بالانبار الى تكريت ، ثم يصعد شمالا الى السن والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر وآمد ثم يتجه غربا الى سبساط ويستمر حتى يصل الفرات الذي يكون الحد الغربي للجزيرة . ويضع ابن رسته (ص ١٠٦-١٠٧) كلا من سبساط وملطية في ديار ربيعة ، اي في القسم الشمالي من الجزيرة . (٣٣)

١ - ارض السواد

يراد بالسواد أرض العراق التي افتتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقد سميت بذلك لسوادها بالزروع والنخيل والاشجار (ياقوت ٣ : ١٥٩) ويقسم ابن خرداذبة مناطق السواد الى ثلاث مناطق ري وهي : -

- أ - المنطقة الاولى - وتقع شرق نهر دجلة وكانت تروى بمياه دجلة والنهروان وتمتد من الدور في الشمال الى نهاية مادرايا في الجنوب (ابن خرداذبة ٦-٧) .
- ب - المنطقة الثانية - وتروى بمياه دجلة والفرات ، وتتألف من الاراضي الواقعة بين مادرايا في الشمال والبطيحة في الغرب والخليج في الجنوب .
- ج - المنطقة الثالثة - وهي أوسع المناطق الثلاث وأكثرها إنتاجا وتقع بين النهرين بين الانبار على الفرات والدور على دجلة في الشمال وبين البطيحة في الجنوب ، وتدخل من ضمن هذه المنطقة نهر الفرات الرابع (نهر عيسى وصرصر والمملك وكوثي) . (ابن خرداذبة ١٤٨) (٣٣) .

ب - ملكية الاراضي

ولما كان العراق قطرا زراعيا بالدرجة الاولى وان اقتصادياته تعتمد على الزراعة فقد كانت الارض اهم حقل للإنتاج ، فلما فتح العرب العراق اعتبروا الارض المستولى عليها صلحا او عنوة ملكا

(٣٢) الدكتور عبدالعزيز الدوري « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » ص ٧-٥ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

مشتركا للامة الاسلامية ، اذ اعتبروا أرض السواد فيء المسلمين بمثابة وقف لهم، وان زراعتها بمنزلة مزارعين يدفعون الخراج ايجارا للارض التي يزرعونها . ومع ذلك فقد وجدت في العراق أنواع مختلفة من الملكية ، دون ان تكون هناك خطوط واضحة تميز بينها . ويمكن تصنيف الارض في العصر العباسي بصورة عامة الى اربعة اصناف رئيسية .

١ - الضياع السلطانية - وهذه تعود للخليفة أو للامير البويهي ، كانت منتشرة في مختلف انحاء العراق ، في السواد وبجوار بغداد والبصرة وواسط ، وفي الاراضي المستصلحة من البطيحة، وحول الموصل ، وكذلك في الاهوار ويران وقد أنشئت عدة دواوين لادارة الضياع السلطانية هذه . ثم تقلصت ضياع الخلافة نتيجة افلاس الخزينة وشغب الجند للحصول على الرواتب وبيع مساحات كبيرة منها في الربع الاول من القرن الرابع الهجري .

٢ - الاقطاعات - وهذه على أنواع منها الاقطاعات المدنية التي تمنح للموظفين بدل الرواتب واقطاعات الوزارة والاقطاعات الخاصة التي كانت تمنح الى افراد لهم خدمات عامة او قابليات خاصة كالشعراء وغيرهم، ويدخل في هذا الصنف اقطاع الارض المتروكة لغرض احيائها . ومنها اقطاعات الخليفة، فلما استولى معز الدولة على ضياع الخلافة خصص للخليفة اقطاعاتا خاصا به ، وكان للخليفة كاتب يقوم بادارة الاقطاع . ومنها الاقطاعات العسكرية ، ففي القرن الرابع الهجري مر الاقطاع بمرحلة عسكرية اذ ان الاراضي وزعت على الجند على نطاق واسع .

٣ - اراضي الملك - وهذه تشمل ارض الموات التي تم احيائها في العصر الاسلامي والاراضي التي استصلحت من البطيحة وكانت تسمى البجوامد ، كما تشمل اراضي الخزينة وضياع الخلافة المباعة .

٤ - اراضي الوقف - وتدخل في هذا الصنف مجموعة هامة من الاراضي ويقصد عادة بالوقف الاراضي التي يخصصها المسلمون لاغراض دينية ، فيكون واردها للبلاد المقدسة (مكة والمدينة) او للفقراء او لليتامى ، او لبناء المساجد أو للمنافع العامة الاخرى^(٣٤) .

ج - الضرائب :

واهم الضرائب التي كانت تجبي من العراق هو الخراج الموضوع على رقاب الارض ويؤخذ من المسلمين وغير المسلمين . واشترط لتادية الخراج اوقات مضروبة الاجل يقبل فيها الدواب والمتاع وغير ذلك ، وهو يؤخذ بالقيمة خلاف الجزية^(٣٥) التي تؤخذ دفعة واحدة « على الرجال

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٤-٣٦

(٣٥) الجزية ، ما يؤخذ من أهل الذمة على الرؤوس لانها تجزي عنهم معاملة الحربيين وتكفيهم مؤونة الجهاد كالمسلمين وهي تؤخذ منهم دفعة واحدة . وتسقط الجزية عن الفرد بمجرد دخوله في الاسلام .

الاصحاء فلم توضع على امرأة او صبي ولا مجنون او عبد ولا سائل او سائل ولا زاهد او شيخ او زمن الا اذا ايسروا * .

وكان الخراج يجبي بطريقة من الطرق الثلاث التالية : -

- ١ - فرضه على وحدة المساحة من الاراضي الزراعية كما فعل عمر بن الخطاب في السواد .
- ٢ - فرضه على وحدة المساحة من الارض المزروعة .
- ٣ - تؤخذ نسبة معينة من الحاصل اي بالمقاسمة .

« اما تقدير الخراج، فيترك الى رأي الامام، بعد ان تؤخذ قابلية الارض بعين الاعتبار ويتوقف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع الحاصل ونوع السقي طبيعيا او اصطناعيا ويضيف بعضهم الى ذلك البعد عن الاسواق * ويراعى في وضع الضريبة (العدل فيما بين اهلها واهل النقيء من غير زيادة تجحف باهل الخراج، ولا نقصان يضر باهل النقيء) * ويلزم معاملة اهل الخراج باللطف وارجائهم في حالة عجزهم عن الدفع » (٣٦) .

وهناك تباين بين آراء الفقهاء في الضرائب وبين نظام الضرائب في الواقع ، فالروايات التاريخية تدل على اختلاف نظام الضرائب خلال الاربعين سنة الاولى للهجرة وعلى عدم رسوخها ولم تعين اصول ضريبة الخراج حتى خلافة عمر الثاني (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧٢٠م) (٣٧) * وفي زمن المأمون حدد مقدار الخراج في السواد بـ ٥/٢ من الحاصل ، الا ان هذه النسبة اغفلت في بعض الاحيان (٣٨) * وكانت الاراضي في سواد البصرة عشرية ، اي تدفع عشر الحاصل ، وهذه هي الاراضي التي فتحت عنوة وحربا وقسمت بين الفاتحين او بقيت ملكا في عهد اصحابها الذين دخلوا في الاسلام طوعا فكانت تربط بضريبة توازي ١٠٪ من غلتها * ويعتبر المقدسي الاراضي المحيطة بالكوفة عشرية ، الا ان الاصطخري والصايبي يعتبرانها خراجية، ورايها اقرب للقبول * وكانت اراضي الوقوف عشرية ايضا *** ومع انه يفترض شرعا ان تدفع الاراضي العشرية عشر حاصلها الا ان الواقع كان يختلف احيانا عن النظريات *

وكان الخراج في زمن عمر بن الخطاب (رض) يجبي على وحدة المساحة من الارض الزراعية ، وقد تم تعيينه حين ترك ارض العراق لاهلها فجعل على جريب النخل (٣٩) عشرة دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين، فبلغ الخراج مائة مليون درهم (فجر الاسلام ص ١٨٠)

(٣٦) الدوري « تاريخ العراق الاقتصادي » ص ١٨٣

(٣٧) المرجع السابق ص ١٨١

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٨٨

(٣٩) الجريب قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعا في ستين ، اي ٣٦٠٠ ذراع مربعة ، ولما كانت الدراع مساوية ٦٢ سنتمترا فتعتبر مساحة الجريب الواحد مساوية ١٣٨٤ مترا مربعا ، اي حوالي نصف مشاركة عراقية .

عن الطبري) وقد حدد المهدي بن المنصور (٧٧٥-٧٨٥ م) حصة بيت المال من المقاسمة فجعلها بالنصف في الأرض التي تسقى سبيحا وبالثلث في الأرض التي تسقى بالدلاء وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب وبقى خراج النخل والكروم والشجر على المساحة. ولما كان أكثر أرض السواد تسقى سبيحا فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريبا وبعد ذلك خراجا ثقيلًا بالنسبة إلى الظروف الحاضرة التي لا يزيد خراج الأرض فيها عن خمس غلتها أو العشر فقط (٤٠).

وعمل علي بن عيسى جريدة مفصلة بواردات الدولة العباسية وخاصة العراق لسنة ٣٠٦هـ (٩١٨ م) وكان أزد مختلف مناطق العراق من العشر والخراج بالدرجة الأولى في هذه الجريدة كما يأتي:

السواد	١٥٦٧٨٧٤	دينارا
الجزيرة	٩٥٨٠٣٧	دينارا
	٢٥٢٥٩١١	

يضاف إلى ذلك وارد الضياع السلطانية الواسعة، فقد بلغ واردها بالإضافة إلى وارد الأوقاف ١٥٠٧٩٨٠١٥ دينارًا في السنة (٤١). وقد ذكر ابن خوقل أن وارد العراق سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨ م بلغ ٤٢ مليون درهم (أي ٢٨٠٠٠٠٠٠ دينار) (٤٢).

د - مساحة أرض السواد :

لقد أذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) أن مجموع مساحة أراضي سواد العراق التي كانت خاضعة للخراج في زمن عمر بن الخطاب (١٣ - ٦٣٤هـ/٦٤٤ م) بلغت حوالي ٣٦ مليون جريب (الجريب يوازي حوالي ثلث الأيكرا) أي ما يساوي حوالي اثنتي عشرة مليون أيكر (حوالي خمسين ألف كيلومتر مربع أو عشرين مليون مشاركة). والمساحة هذه تساوي زهاء ثلثي مساحة أراضي الدلتا الحالية القابلة للزراعة والتي تقدر بحوالي ٨٠/٠٠٠ كيلومتر مربع أو ٣٣ مليون مشاركة. ولما كانت جباية الخراج قائمة في ذلك الوقت على أساس مساحة الأرض باعتبار الجريب كوحدة قياسية مهما يكن حاله من الجدب والخصب، أي أنه كان يفرض على مساحة معلومة من الأرض الزراعية، وإذا لاحظنا أن طريقة الزراعة في ذلك الوقت كان على نحو ما هو متبع الآن في زراعة النير والنير، أي في زراعة نصف الأرض في السنة الأولى وترك النصف الآخر بائرا لزراعته في السنة التالية، اتضح لنا بأن من المحتمل أن مساحة الأراضي التي كانت تزرع فعلا في السنة الواحدة كانت تقرب من نصف الأراضي الخاضعة للخراج، أي زهاء عشرة ملايين مشاركة.

(٤٠) « دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ » ص ٢٨٩

(٤١) « تاريخ العراق الاقتصادي »، ص ١٩١، ١٩٣، ١٩٥

(٤٢) يساوي آتد كل ١٥ درهما دينارًا واحدًا.

ولعلها وصلت الى اكثر من ذلك في الازمنة التي سبقت فيضان سنة ١٢٢٧/١٢٢٨ * ويعتقد السير ويليام ويلكوكس بانة مامن عهد من العهود القديمة بلغت فيه مساحة الاراضي المزروعة في العام الواحد اكثر من ثمانية او عشرة ملايين مشاركة * ولما كان خراج السواد في ايام عمر ١٢٠ مليون من الدراهم كما ذكره المؤرخون فبذلك يكون معدل ما كان يؤخذ على الجريب الواحد من الارض زهاء ثلاثة دراهم على اساس ان مساحة الارض الخاضعة للخراج تبلغ ٣٦ مليون جريب كما تقدم *

١٥ - ارض السواد في عهد الانحطاط

ولسو الطالع ان العصر الذهبي الذي شهدته البلاد في القرون الثلاثة الاولى من العهد العربي لم يدم اذ بدأ التفسخ والوهن يديبان في جسم المملكة العباسية ، فظهر تأثيرهما في اواخر القرن الثالث للهجرة ، وذلك نتيجة تقلص نفوذ الخلفاء وسيطرتهم على شؤون المملكة ، الامر الذي ادى الى انحطاط الري في القطر كله * وكان هذا التقهقر سريعا في تأثيره على قابلية الانتاج في ارض السواد فهبط الى الثلث في ظرف مائتي سنة * ويرينا الجدول الاتي تدرج ذلك الهبوط *

١٢٠/٠٠٠/٠٠٠	في عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٥٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)
١٣٥/٠٠٠/٠٠٠	في زمن عبيدالله بن زياد (٦٢٢ هـ / ٦٨١ م) *
١٨٨/٠٠٠/٠٠٠	في ايام الحجاج بن يوسف (١٨٥ هـ / ٧٠٤ م)
١٢٠/٠٠٠/٠٠٠	في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠ م)
١١٤/٤٥٧/٦٥٠	في ايام المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م)
٨٤/٣٠٩/٣٤٠	في زمن المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م)
٤٩/٧٢٦/٢٣٥	في زمن المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م)

٢ - انهيار سد ديالى :

ان اول حادث وقع في هذا الدور هو انهيار السد القائم على نهر ديالى، وهو السد الذي كانت تحول من امامه مياه فيضان نهر ديالى الى منخفضات مريجة ومنها الى دجلة جنوب مدينة الكوت الحالية عن طريق هور الشويجة (انظر ما تقدم الفقرة ١٢ من هذا الفصل) * وقد وقع هذا الحادث الخطير حوالي السنة ٣٠٠ هجرية قادي ذلك الى اختراق مجرى نهر ديالى لجدول النهروان واحتلال هذا المجرى المسمى (ديالى) الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى للنهروان ويصب في دجلة جنوب بغداد بقليل فكان لا بد من القيام بمشروع لا يصلح المياه الى النهروان الاسفل بعد اختراق نهر ديالى للنهروان لا تقطاع صلة الاخير بالقواطيل ، فأنشأوا اسدا على مجرى ديالى الجديد وحولوا مياه نهر ديالى من امامه الى القسم الاسفل من النهروان * وهكذا فقد اصبح النهروان الذي يمتد بين ديالى والكوت يعتمد في ايراده المائي على نهر ديالى (تامرا) بعد ان كان يستمد مياهه من دجلة بطريقة القواطيل ، كما انه اصبح دخول مياه ديالى الى النهروان الاسفل يعتمد على صمود السد الذي اقيم على نهر ديالى *

ب - انهيار سدي العظيم :

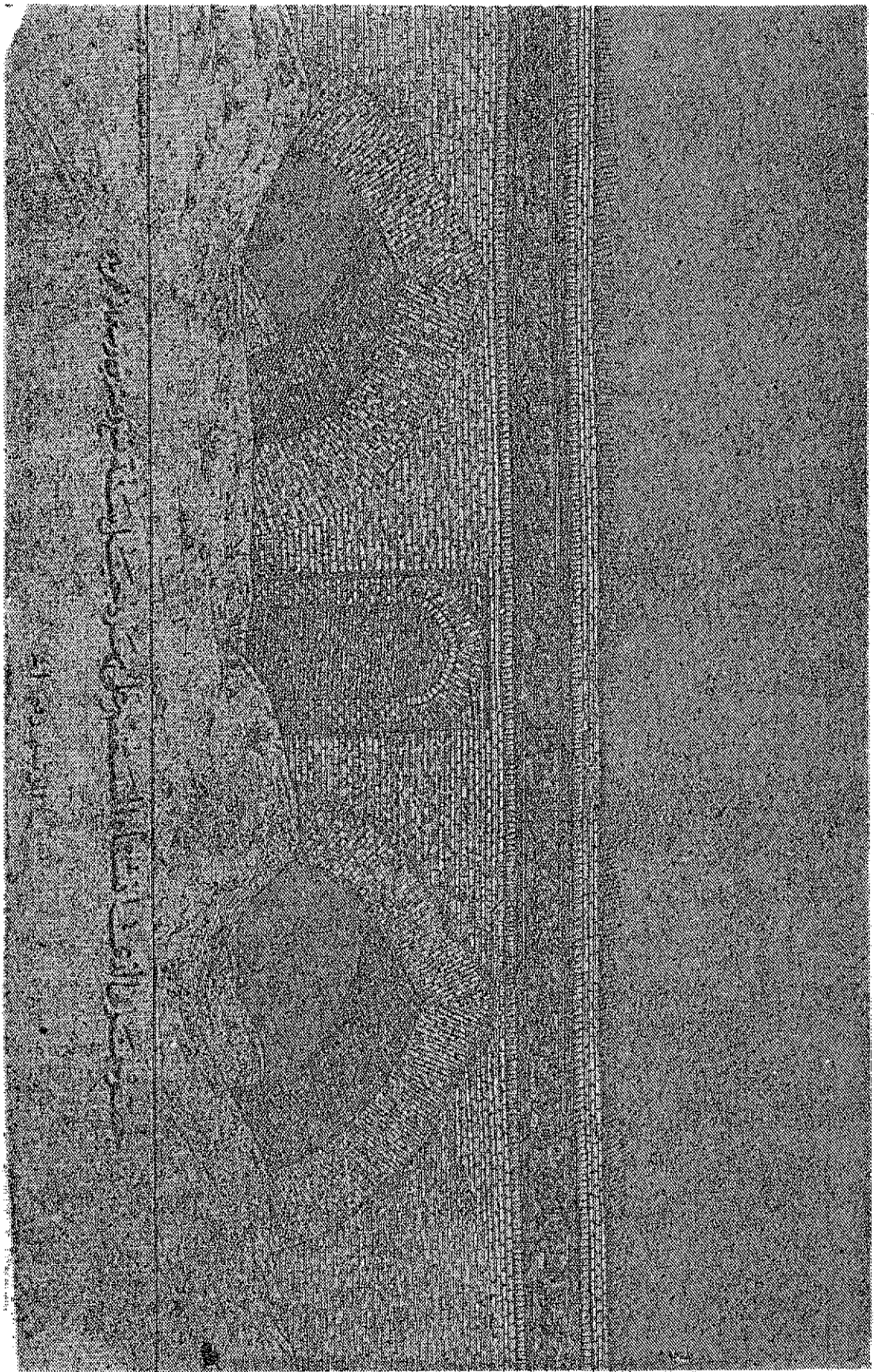
وكان مصير السد المقام على نهر العظيم لتحويل مياهه الى بحيرة الشارع ومنها الى جدول النهروان نفس مصير سد ديالى فانهار سد العظيم واخترق مجراه النهروان وصار يصب في دجلة جنوب سامراء فانشىء سد ثان اسفل الاصلي ولكن هذا السد الثاني انهار بدوره ايضا (انظر ما تقدم في الفقرة ١٢ من هذا الفصل) * وقد كان انهيار سد العظيم نذير الموت المحتم لمنطقة دجلة باسرها ، اذ جفت منطقة النهروان باسرها بعد ان اخترقته مياه نهر العظيم من الشمال ومياه نهر ديالى من الجنوب ، وقد تم كل هذا في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، فقرر بذلك مشروع النهروان نهائيا وبقي مقبوراً منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا *

ج - تحول نهر دجلة في القسم الممتد بين سامراء وبغداد :

وقد تلا هذا الحادث حادث آخر كان من الخطورة بحيث قضى على مشاريع منطقة ري سامراء كلها قضاء مبرما ، واعني بذلك تحول مجرى دجلة في نقطة جنوب سد نمرود مباشرة (انظر ما تقدم عن سد نمرود في الفقرة ٧ من الفصل التاسع) من عقيقه الغربي الذي كان يسير في اتجاه العث والحظيرة وعكبرا واوانا ومسكن الى المجرى الشرقي الحالي وهو التحول الذي ادى الى هبوط مستوى مياه دجلة في مجراه الشرقي الجديد حوالي تسعة امتار * وهكذا تمزق النهروان فانقطعت المياه عن صدره الواقع في جوار سامراء كما انقطعت المياه عن نهر الاسحافي في الجانب الغربي من النهر ، وتشير الاخبار الى ان نهر دجلة قد تحول نهائيا الى المجرى الشرقي الحالي في عهد المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠ هـ / ١٢٢٦-١٢٤٢ م) *

د - احياء نهر دجيل القديم :

وكان طبيعيا ان يبذل رجال الحكم جهودهم لمعالجة الوضع الخطير الذي تركته حادثة تحول مجرى نهر دجلة ، لان نتائج التحول المذكور لم تقتصر على موت منطقة النهروان حسب بل شملت جذب المنطقة الواقعة على مجرى دجلة القديم برمتها * وقد عولج الوضع باعادة تنظيم مجرى نهر دجلة القديم لايصال المياه الى هذه المنطقة بعد تحول مجرى دجلة عنها ، وصار يعرف هذا المجرى باسم نهر دجيل فقام المستنصر بتوسيع هذا النهر وانشأ (سنة ٦٢٩ هـ - ١٢٣١ م) قنطرة عليه وهي القنطرة المشهورة المعروفة اليوم باسم (جسر حربي) ، كما أنه حفر جدولاً يأخذ من نهر دجيل المذكور وينتهي الى بساتين بلد والحظيرة في الجهة الشرقية من دجيل ، وهو الجدول الذي سمي باسمه (نهر المستنصر) فيسير في بعض اقسامه في وسط عقيق دجلة الغربي المندرس ويرجع نهر دجيل الى عهد قديم ، وكان صدره انذاك يتفرع من الضفة اليمنى من نهر دجلة من امام سد نمرود ويمتد حتى مدينة بغداد جنوبا ، وكان يسري المنطقة الواقعة على الضفة الغربية من مجرى دجلة الغربي القديم كله (انظر الرسم رقم ٤١) *



هـ - تحول نهر دجلة في القسم الجنوبي :

ولم يقتصر التحول الذي حدث في نهر دجلة على قسمه الاعلى الواقع شمال بغداد بل شمل القسم الاسفل منه جنوبا ايضا ، اذ تدلنا الوقائع التاريخية على ان مجرى دجلة الرئيسي الذي كان يسير في الاتجاه الغربي نحو شط الغراف الحالي الذي اقيمت عليه مدينة واسط تحول الى الاتجاه الشرقي الحالي نحو العمارة والقرنة ، أي انه رجع الى المجرى الشرقي الذي كان يسير فيه زمن الفرس وكان رجوعه هذا قد حدث بصورة تدريجية ، فهناك ما يدل على ان معظم مياه النهر كانت حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تجري في اتجاه شط الغراف ثم توزعت في سنة ١٥٧٥ بين المجرىين الشرقي والغربي بصورة متساوية ولم تتحول مياه النهر كلها الى المجرى الشرقي في اتجاه العمارة الا بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي .

ويلاحظ هنا انه بينما كانت قناطر الخيزران قد انشئت على صدر شط الغراف في صدر الاسلام لتحويل بعض نهر دجلة الى المجرى الشرقي في اتجاه بلدة العمارة (انظر الفقرة هـ من هذا الفصل) قد انعكس الوضع الان حيث أصبح هذا الوضع الجديد يقضي بوجود انشاء سد على صدر الفرع الشرقي الذي يتجه صوب بلدة العمارة بغية تحويل بعض مياه النهر الى الفرع الغربي (شط الغراف) الذي انحسرت عنه المياه . وهذا هو نفس المشروع الذي انتهت الحكومة العراقية من اقامته سنة ١٩٣٩ والمعروف بمشروع سدة الكوت على هيئة بناء عصري حديث (انظر : « دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ » ص ٧٠٤) .

و - تحول مجرى نهر الفرات الى جهة بابل :

وقد طرأ ايضا تحول في مجرى الفرات ، فهناك ما يدل على ان مجرى نهر سورا أي مجرى فرع بابل اخذ يتوسع تدريجيا في اواخر العهد العباسي على حساب مجرى الكوفة الذي كانت معظم مياه الفرات تجري فيه . وأول من نوه بذلك سهراب في اوائل القرن العاشر الميلادي فقال ان الفرات بعد ان يجاوز نهر كوئي بستة فراسخ يقسم قسمين فيمر الفرات الى قنطرة الكوفة « ويمر القسم الاخر نهرا عظيما اعظم من الفرات واعرض وهو النهر الذي يقال له سورا الاعلى » . وقد أيد ذلك ياقوت فقال ان نهر سورا هو اكبر أنهر الفرات ومن ضمنها نهر الكوفة . يتضح مما تقدم ان الفرات بقي في أواخر أيام بني العباس ، وهي الفترة التي أهملت فيها أعمال الري ، في وضع لا يستقر على حال تتقاذفه أمواج الاقدار في بحر تقلبات الطبيعة حتى دخل المغول البلاد فوجد الفرات في غمرة الاهمال والاضطراب المجال للتحول من المجرى الغربي الذي يسير بطريق الكوفة الى مجراه البابلي القديم .

١٩ - الاحتلال المغولي واثره في انحطاط الري :

وكان الاحتلال المغولي في القرنين الثالث والرابع عشر نقطة تحول في تطور الري في العراق فعندما سقطت الخلافة في بغداد وتدفق ملوفان المغول لاجتياح العالم نزلت الضربة الاخيرة بجميع منشآت الري التي كانت قائمة في البلاد ، فأهملت السدود وراحت المياه تجري لطبيعتها دون مراقب أو منظم ، فنتج عن ذلك تراكم راسبات الغرين في الجداول والفروع وانتشار الالهوار . يقول المستر لونكريك في وصف حالة الري على أثر غزو المغول للعراق : « وكانت أعظم الاعمال التهديمية التي ارتكبها هولوكو هي التخريب المتقن في السدود والانهار ونواظم الاسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد . وقد تعذر القيام باصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطرابات في البلاد وفقدان روح العمل بين الاحياء من السكان القليلين بعد تلك المذابح والتخريبات الهائلة ، وهو الامر الذي أدى أخيرا الى اهمال الانهار وتردي الحالة في مجاريها من جراء تراكم الغرين وتكاثره بحيث غدت الانهر مظمورة لا تستوعب الماء الكافي ولا يمكن ضبطها عند الطغيان ، ولم يعد من الممكن استعادة الحالة الى سابق عهدها في البلاد حتى يومنا هذا » .